شرح المعرفة وبذل النصيحة

للحارث المحاسبي

حققه وعلق عليه
أبو مريم مجدي فتحي السيد



دار الصحابة للتراث بطنطا

شرح المعرفة وبذل النصيحة

للحارث المحاسبي

أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي
المتوفى سنة ٢٤٣هـ

حققه وعلق عليه
أبو مريم مجدي فتحي السيد

دار الصحابة للتراث بطنطا

لدار الصحابة للتراث بطنطا

للنشر - والتحقيق - والتوزيع

المراسلات:
طنطا ش المديرية - أمام محطة بنزين التعاون
ت: ٣٣١٥٨٧ ص.ب: ٤٧٧

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

الحمد لله ...

نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ...

من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ،ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (١) .

﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساءً ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبًا ﴾ (٢)

﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدًا ، يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله ، فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ (٣) .

☆☆☆☆

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٢ .

(٢) سورة النساء : ٠١

(٣) سورة الأحزاب : ٧٠ - ٧١ .

قالوا عن معرفة الله

☆ قال بديل التابعي رحمه الله : « **من عرف ربه أحبه ،ومن أحبه ترك الدنيا ، وزهد فيها ، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل ، وإن تفكر حزن** » (١) .

☆ قال عتبة الغلام رحمه الله : « **من عرف الله أحبه ، ومن أحب الله أطاعه ، ومن أطاع الله أكرمه ، ومن أكرمه أسكنه في جواره ، ومن أسكنه في جواره ، فطوباه ، وطوباه ، وطوباه** » (٢) .

☆ وقال ذو النون المصري رحمه الله : ـ « **من عرف الله رضي بالله ، وسرّ بما قضى الله** » .

« **من عرف ربه وجد طعم العبودية ، ولذة الذكر والطاعة** » (٣) .

☆ وقال مالك بن دينا رحمه الله : ـ « **من عرف الله تعالى لفي شغل شاغل ، الويل كل الويل لمن ذهب عمره في الدنيا باطلاً** » (٤) .

☆ قال الشبلي رحمه الله : ـ « **من عرف الله خضع له كل شيء** » (٥) .

---

(١) حلية الأولياء (٣/١٠٨) .

(٢) الحلية (٦/٢٣٦) ، (١٠/٨١).

(٣) الزهد للبيهقي (٩٤) ، (١٩٣) ، ومختصر تاريخ دمشق (٨/٢٥١) لابن منظور .

(٤) العظمة (٦٧) لأبي الشيخ ، والحلية (٨/٢٣) .

(٥) الحلية (١٠/٣٧٠) .

☆ وقيل : « من عرف الله تعالى صفا له العيش ، فطابت له الحياة ، وهابه كل شيء ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأنس بالله » (١) .

☆ وقيل : « من عرف الله قرت عينه بالله ، وقرت عينه بالموت ، وقرت به كل عين ، ومن لم يعرف الله ، تقطع قلبه على الدنيا حسرات ، ومن عرف الله لم يبق له رغبة فيما سواه ، ومن ادعى معرفة الله ـ وهو راغب في غيره ـ كَذَّبت رغبته معرفته ، ومن عرف الله أحبه على قدر معرفته به ، وخافه ، ورجاه ، وتوكل عليه ، وأناب إليه ، ولهج بذكره ، واشتاق إلى لقائه ، واستحيا منه ، وأجَلَّه ، وعظمه على قدر معرفته به » (٢) .

☆☆☆☆

---

(١) ، (٢) مدارج السالكين (٣/٣٥٤ ـ ٣٥٥) لابن القيم .

بين يدى الكتاب

الحمد لله وكفى ، وصلاة وسلام على عباده الذين اصطفى .

وبعد ...

معرفة الله تعالى بوحدانيته ، وعظيم قدرته ، وسلطانه ، ولطيف حكمته ، وتدبيره ، وعجائب صنعه، وأنه لا تحيط به الصفات ، ولاتدركه الأوهام ، ولا تبلغه الأفهام ، من الأمور التى وجب على المكلفين السعى فى تحصيلها ، والعمل على الوصول إليها .

والناس على مشارب شتى فى معرفة الله تعالى .

قال ابن القيم رحمه الله : من الناس من يعرف الله بالجود ، والأفضال ، والإحسان ، ومنهم من يعرفه بالعفو والحلم والتجاوز ، ومنهم من يعرفه بالبطش والانتقام ، ومنهم من يعرفة بالعلم والحكمة ، ومنهم من يعرفه بالعزة والكبرياء ، ومنهم من يعرفه بالرحمة والبر واللطف ، ومنهم من يعرفه بالقهر والملك ، ومنهم من يعرفه بإجابة دعوته ، وإغاثة لهفته ، وقضاء حاجته .

وأعلم هؤلاء معرفة من عرفه من كلامه ، فإنه يعرف رباً قد اجتمعت له صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، منزه عن المثال ،برىء من النقائص والعيوب ، له كل اسم حسن ، وكل وصف كمال ، فعال لما يريد ، فوق كل شىء ، ومع كل شىء ، وقادر على كل شىء ، ومقيم لكل شىء ،

أرحم الراحمين ، وأقدر القادرين ، وأحكم الحاكمين . (١)

وفى هذا الكتاب يأخذنا مصنفه فى رحلة عن معرفة الله ، والواجب علينا نحو هذا الأمر .

فيعلمنا فى البداية أن معرفة الله هى أصل الطاعات ، ومنبع الخيرات .

ثم يقسم لنا المعرفة إلى أربعة أقسام ، هى معرفة الله أولاً ، ثم معرفة إبليس ثانياً ، ثم معرفة النفس ثالثاً ، رابعًا معرفة العمل لله ، يعنى الإخلاص رابعًا .

وبعد أن تحدث المصنف حول تلك الأقسام ، وانتهى من توضيحها ، وشرحها أخذ يذكر نصيحته التى ينصح بها كل مسلم ومسلمة يبحثان عن طريق الخير والرشاد .

وبعد ...

من جهل بربه ، وجهل بنفسه ، فإنه يقع فى أركان الكفر الأربعة : الكبر ، والحسد ، والغضب ، والشهوة .

فمنشأ (٢) هذه الأربعة من جهل العبد بربه ، وجهله بنفسه ، فإنه لو عرف ربه بصفات الكمال ، ونعوت الجلال ، وعرف نفسه بالنقائص والآفات لم يتكبر ، ولم يغضب لها ، ولم يحسد أحدًا على ما آتاه الله ، فإن الحسد فى الحقيقة نوع من معاداة الله ، فإنه يكره نعمة الله على

(١) الفوائد (ص/١١٧) لابن القيم .

(١) الفوائد (ص / ١١٧) .

عبده ، وقد أحبها الله ، ويحب زوالها عنه ، والله يكره ذلك ، فهو مضاد لله فى قضائه وقدره ، ومحبته ، وكراهته .

ولذلك كان إبليس عدوه حقيقة ، لأن ذنبه كان عن كبر وحسد ، فقلع هاتين الصفتين بمعرفة الله وتوحيده ، والرضابه وعنه ، والإنابة إليه .

وقلع الغضب بمعرفة النفس ، وأنها لاتستحق أن يغضب لها ، وينتقم لها ، فإن ذلك إيثار لها بالرضا ، والغضب على خالقها وفاطرها .

وأعظم ما تدفع به هذه الآفة أن يعودها أن تغضب له سبحانه وترضى له ، فكلما دخلها شيء من الغضب والرضا له خرج منها مقابله من الغضب والرضا لها ، وكذا بالعكس .

وأما الشهوة فدواؤها صحة العلم ، والمعرفة بأن إعطاءها شهواتها أعظم أسباب حرمانها إياها ، ومنعها منها ، وحميتها أعظم أسباب اتصالها إليها ، فكلما فتحت عليها باب الشهوات كنت ساعياً فى حرمانها إياها ، وكلما أغلقت عنها ذلك الباب كنت ساعياً فى إيصالها إليها على أكمل الوجوه .

أخيراً ...

مع كتاب « شرح المعرفة وبذل النصيحة » أترككم ، سائلاً ربى المزيد من التوفيق ، والسداد ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أبو مريم / مجدى فتحى السيدإبراهيم
طنطا ـ مصر

☆☆☆☆

توثيق نسبة الكتاب إلى مصنفه

١ ـ أول من نسب الكتاب إلى المصنف ، هو نفسه ، فقد كان يقول :

« عملت كتاباً في المعرفة ، وأعجبت به ، فبينما أنا ذات يوم أنظر فيه مستحسنا له ، إذ دخل عليَّ شاب عليه ثياب رثة ، فسلم عليَّ ، وقال : يا أبا عبد الله، المعرفة حق للحق على الخالق، أوحق للخلق على الحق ؟ فقلت له : حق على الخلق للحق . فقال هو أولى أن يكشفها لمستحقها . فقلت : بل حق للخلق على الحق . فقال : هو أعدل من أن يظلمهم ، ثم سلم عليَّ ، وخرج .

قال الحارث : فأخذت الكتاب ، وحرقته ، وقلت : لا عدت أن أتكلم في المعرفة بعد ذلك (١) .

فهذا توثيق صاحب الكتاب من نفسه لمصَنَّفِه ، ولكن لنا أن نتساءل لِمَ حرق المحاسبي نسخته ، ومع ذلك بقي الكتاب موجوداً حتى يومنا ؟

إن تصرف المحاسبي يبدو للوهلة الأولى إنما رد فعل سريع لتلك المناظرة التي حيره الشاب فيها .

ثم إن الاعتراض كان على ماهية المعرفة ، هل هي من حقوق المخلو ق على الخالق ، أم من حقوق الخالق على المخلوق ؟

ثم بناءً على إجابة هذا السؤال كان الاعتراض عن تكلم المحاسبي في

---

(١) الطبقات (٦٤/١) للشعراني ، والكواكب الدرية (٢١٩/١) للمناوى بنحوه .

تلك المسألة ، وكأن السائل ، أراد أن يقول : صاحب الحق أولى أن يتكلم هو عنه ، ويوضحه ، هذا إن كان ذلك من حق الحق على الخلق ، فإن كان من حق الخلق على الحق ، وهو لم يتكلم عنه ، فهو أعدل من أن يظلمهم فى ذلك .

ونظراً لهذه المحاورة ، أسرع إلى كتابه « المعرفة » وقام بحرق النسخة التى كانت عنده ، وأتلفها ، ولكنه قد سُبق ونقل عنه نسخ أخرى من تلك الرسالة .

فاطلع المحاسبى - والله أعلم - بعد ذلك على نسخة من تلك النسخ ، ورضى ما فيها ، ولكنه زاد عليها تلك المرة : الجزء الخاص بالنصيحة ، وهو مايسمى « بذل النصيحة » .

٢ - نسبه له أصحاب التراجم ، انظر :

ا - تاريخ بروكلمان (٤/٦٠) .

ب - تاريخ التراث العربى (٢/٤٤١) لفؤاد سزكين .

جـ - الأعلام للزركلى (٢/١٥٣) وأشار إلى أنه لازال مخطوطاً .

د - فى هامش طبعة رسالة المسترشدين - المطبوعة بدار السلام بالقاهرة - (ص ٢٩) مانصه : وجاء فى ترجمة بعض شيوخ محيى الدين ابن العربى أنه قرأه ، كما ذكر ذلك الشيخ ابن العربى فى كتابه « روح القدس فى محاسبة النفس » المطبوع بدمشق سنة ١٣٨٤ ص ٧٢ .

والحمد لله أولاً وآخراً .

وصف مخطوط الكتاب

عثرت - بفضل الله تعالى - على مخطوطة هذا الكتاب فى دار الكتب المصرية العامرة بذخائر المخطوطات من تراث سلفنا الصالح .

تقع المخطوطة فى دار الكتب تحت البيانات التالية : -

١ - الفن : « تصوف الشنقيطى » .

٢ - رقم المخطوط : (٣) .

٣ - رقم الميكروفيلم : (٣٨٨٩) .

٤ - عدد الأوراق : (١٢) أى (٢٤) صفحة .

٥ - عدد الأسطر : (٢٢) سطراً فى المتوسط .

وخط المخطوطة لا بأس به ، وبها عناوين رئيسية للأبواب .

وهذه النسخة توجد فى المكتبة الأزهرية (٦٣٤/٣) تحت رمز تصوف برقم (١٢٠٨) .

وقد ذكر أهل التراجم نسخاً أخرى للكتاب ، وأجزاءً منه كالتالى :

أ - فى برلين (٢٨١٥) جزء واحد من ورقة ٢٠٨ - ٢١٠ .

ب - المتحف البريطانى ، الملحق ١٢٤٢ ، مخطوطات شرقية (٤٠٢٦ / ٣)

حـ ـ شهيد على (٣/١٣٤٥) ، (٣٧أ ـ ٤٧أ القرن الثامن الهجرى).

د ـ صائب بأنقرة (١/٣٣١٩) ، (من ١أ ـ ١١ب ، ٧٣١ هـ) .

ويبدو أن هاتين النسختين صورة طبق الأصل من نسختنا ، بالنظر إلى عدد الأوراق ، والله أعلم .

ـ تشستر بيتى (٤٩٦٩) (١٧ ورقة ، ٩١١ هـ).

ويبدو أن خط هذه النسخة لما تقدم على ما سبق إلى القرن التاسع ، بسبب الخط زادت أوراق النسخة إلى ما سبق ذكره .

و ـ قطعة منه فى برلين (١٤٣٥) .

والحمد لله رب العالمين

☆☆☆☆

عملى فى الكتاب

لقد حاولت أن أصل بهذه الرسالة إلى أن تكون في حلة بهية ، وصورة زاهية ، وهذا بجهدى المُقل ، وسلكت فى صنيعى هذا ما يلى : -

١ - قمت بتقسيم الكتاب إلى فقرات ، وأعطيتها أرقامًا مسلسلة ، حتى يسهل تفهم نصوص الكتاب بغير عناءٍ ، ولتقسيم المادة العلمية .

٢ - أصلحت ما كان من بعض الأخطاء التى كانت من الناسخ ، وغيرت البعض الآخر إلى الكتابة بالطريقة الإملائية الحديثة .

٣ - قمت بالتعليق على المواضع الهامة من الرسالة ، وذكرت بعض المعانى اللغوية ، مدعماً المادة العلمية للكتاب بالإكثار من مواقف السلف الصالح فى هذه المسألة أوتلك .

٤ - قدمت للكتاب بمقدمة عن الموضوع ، والمخطوط وتوثيقه ، أما الحديث عن المصنف ، فقد سبق فى كتاب « بدء من أناب إلى الله » طبع بمكتبة دار السلام بالقاهرة .

٥ - وضعت العناوين الجانبية أما عناوين الأبواب فهى للمصنف .

وأخيراً ...

أسأل الله العظيم ، رب العرش العظيم ، أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفعنى به ، وسائر المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

☆☆☆☆

كتاب
شرح المعرفة
و
بذل النصيحة

للحارث المحاسبي

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد

قال الشيخ الفقيه ، العالم ، العلامة ،الولى ، الصالح ، العارف بالله تعالى ، أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى - رحمه الله تعالى - ورضى عنه ، ونفعنا به آمين :-

١ - اعلم رحمنا الله وإياك : أن العبادَ لا يصلح لهم الحياء من الله تعالى إلا بالمراقبة له (١) ، والمراقبةُ هى بابُ المعرفة بالله تعالى ، وهى فرضٌ من الله تعالى على العباد (٢) ، وبها يحظى العبد عند اللّهِ تعالى .

٢ - وهى أصلُ الطاعة (٣) كلها، وفرعها ، وأولها وآخرها ، والمؤمنون مأمورون بها كلهم ، ذكورهم وإناثهم ، والخلق أجمعون .

---

(١) المراقبة : تعنى مراعاة العبد لرؤية الله لأعماله ، وأقواله ، فالله هو الرقيب .

(٢) هذه الفرضية تبدو جلية فى قول الحق جل شأنه : ﴿ **يوم تجد كل نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضرًا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيداً ، ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد** ﴾ آل عمران : ٣٠ وقوله عز وجل : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً** ﴾ الكهف : ٤٩ .

(٣) لأن المراد بالمراقبة هو إخلاص العبد لربه ، كما قال إبراهيم الخواص :
المراقبة خلوص السر و العلانية لله عز وجل .
انظر : مدارج السالكين (٢/٦٨) .

فلو أن عبداً عَبَدَ اللَّهَ ألف ألف سنة ، ثم لم يعرفها (١) ، ولم يعمل بها لم يزدد من اللَّهِ بعمله إلا بُعداً (٢) ، ولم يزدد قلبه إلا قساوة (٣) ، ولا دينه إلا انتقاصاً .

قال المحاسبى رحمه الله تعالى (٤) :ـ

٣ ـ لا يبلغ العبدُ درجةَ الصالحين ، المخلصين ، الصديقين ، ولا يسلك طريق الورعين ، ولا يكون مخلصاً ، ولا خائفاً حتى يفهم المراقبة من الله تعالى .

فاسمع رحمك الله ، فإنى نصحتُك غاية النصيحة ، فاستعن بالله ـ عز وجل ـ على الصبر فى الحالات كلها ، وتعلم أن المراقبةَ تنقسم على أربعة أقسام :ـ

---

(١) المقصود المعرفة العملية ، وإلا فإن عوام الخلق لا يعرفون المصطلحات كمسميات ، ولكن يُطلب منهم العمل بالمعانى .

(٢) ليس بغريب ذلك ، ولا بعجيب لخلو أعماله من المراقبة ، فإن معنى ذلك أنه يعبد رياء وسمعة ، أو عادة ، وتملقًا للخلق .

(٣) ومن هذا نفهم أن فضيلة « المراقبة » صفة تنبع من أعماق القلب ، وتنبثق من طوايا النفس ، وترتبط بالباطن أكثر مما ترتبط بالظاهر ، فهى قائمة على شعور الحىِّ العميق بجلال الله وسلطانه ، ولقد قال عبد الله بن المبارك لرجل :

راقب الله تعالى ، فسأله معنى ذلك ، فقال له : كن أبداً كأنك ترى الله .

انظر : أخلاق القرآن (١/٩) للشرباصى .

(٤) هذا من الناسخ ، والله أعلم .

الأول : معرفةُ اللَّهِ تبارك وتعالى .

والثاني : معرفةُ إبليس عدو الله .

والثالث : معرفهُ نفسك .

والرابع : معرفةُ العمل لله عز وجل (١) .

فهذه أقسام المراقبة ، فلو أن عبداً عاش دهره كله مجتهداً فى العبادة ، ولم يعرفها (٢) ثم صار إلى الله عز وجل على الجهل بها لم ينتفع بشيءٍ إلا أن يتفضل الجليل جل جلاله .

☆☆☆☆

---

(١) قال شقيق البلخى : لو أن رجلاً أقام مائتى سنة لا يعرف هذه الأربعة أشياء لم ينج من النار إن شاء الله : أحدها : معرفة الله ، والثاني: معرفة نفسه ، والثالث : معرفة أمر الله ونهيه ، والرابع : معرفة عدو الله ، وعدو نفسه .

ومعرفة الله أن تعرفه فى السر والعلانية ، وأنه لا معطى ، ولا مانعٌ غيره ، والثانى معرفة نفسه : أن يعرفها فى ضعفه ، وعجزه ، وأنه لا يستطيع أن يرد شيئاً مما قضى الله تعالى ، والثالث : معرفة أمر الله ونهيه ، أن يعرف أن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً ، وعلامة الإخلاص أن لا يطمع فى أحدٍ من المخلوقين ، ولايريد مدحهم ، الرابع معرفة عدو الله ، وعدو نفسه : إبليس ، أن يعمل فى السر ملتجئًا لربه بالمعرفة حتى يسكن ، وتكون النصرة عليه .

انظر : حلية الأولياء (٨/٦٠) لابى نعيم ، والدر المنظوم (ص/٣٦ ـ ٣٧) للأقليشى .

(٢) المقصود المعرفة بالله التى تؤدى إلى طاعته ، ويكفى فى العلم بها ، العمل ، وإن لم يعرف العامل معنى المصطلحات ، وأسماءها .

باب

معرفة الله تعالى

وهى القسم الأول من أقسام المراقبة .

٤ ـ فأما معرفة الله تعالى فهى :-

أن تلزم نفسَك قُربَه ، وتعرف بيقين أن الله تعالى أقرب منك من حبل الوريد ، كما ذكر الله سبحانه فى كتابه العزيز :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ ﴾ (١) .

٥ ـ وتعرف قيامَهُ عليك (٢) ، وقدرتَهُ عليك (٣) ، وعلمَهُ بكِ أنه رقيبٌ حفيظٌ .

---

(١) سورة ق : ١٦ .

* قال الضحاك : ليس شيء أقرب إلى ابن آدم من حبل الوريد ، والله أقرب إليه منه ، انظر : الدرالمنثور (١٠٣/٦) .

(٢) القائم على كل نفسٍ فى رزقها ، وحياتها ، ومماتها ، وسعادتها ، وشقاوتها .

* جاء رجلٌ إلى إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ فقال : يا أبا إسحاق ، إنى مسرف فأشتهى أن تعلمنى شيئاً أنتفع به ؟ فقال رحمه الله تعالى :

إنى معلمك خمسة خصال ، إن قدرت عليها لم تصبك معصية ، ولا تؤنبك لذة . قال : هات يا أبا إسحاق . قال : أما الأولى : إذا أردت أن تعصى الله ، فلا تأكل رزقه . قال : فمن أين آكل ، وكل ما فى الأرض من رزقه ؟ ! قال : ياهذا أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتعصيه ؟!!

قال : لا ، وأما الثانية : إذ أردت أن تعصى الله فلا تسكن شيئاً من بلاده ، قال الرجل : هذه أعظم من الأولى . ثم قال : إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن ؟ ! قال : ياهذا أفيحسن بك أن تأكل رزقه ، وتسكن بلاده وتعصيه وهو يراك ؟ !! ويرى ما تجاهره به ؟! قال : لا ، هات الثالثة : قال : إذا أردت أن تعصى الله فاذهب =

٦ ـ وأنه واحدٌ لا شريك له فى ملكه ، وأنه صادقٌ لوعده ، ليس له شبه ولا مثيل .

وأنه كل يوم هو فى شأنٍ (١) ، فتلزم ذلك كل عضو منك ، وكل جارحة ، وكل مفصلٍ ، وكل عرقٍ ، وعصبٍ ، وشعرٍ (٢) .

٧ ـ ويكون عندك اليقين أن اللَّهَ تعالى قائمٌ على ذلك كله ، وعالمٌ به ،

= إلى مكان لا يراك فيه ، قال الرجل : أين أذهب ، والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، وما بينهما وما تحت الثرى . قال : ياهذا أفيحسن بك أن تعصاه وهو يراك ؟! قال : لا ، هات الرابعة ؟ قال : إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك ، فقل أخرنى حتى أتوب توبة نصوحاً ، وأعمل لله خالصاً . قال : لا يقبل منى . قال : ياهذا ، فأنت إذا لم تقدر أن تدفع الموت عن نفسك ، وتعلم أنه إذا جاءك لم يكن له تأخير ، فكيف ترجو وجه الخلاص ؟ قال : هات الخامسة . قال : إذا جاءك الزبانية ليأخذوك يوم القيامة إلى النار فلا تذهب معهم . قال : لا يدعونى ، ولا يقبلوا منى . قال : فكيف ترجو النجاة ؟قال الرجل : حسبى .. حسبى ، أنا أستغفر الله ، وأتوب إليه .

انظر : الدر المنظوم (ص/٤٥ ـ ٤٦) للأقليشى .

(٣) قال شقيق البلخى رحمه الله : من لم يعرف الله بالقدرة ، فإنه لا يعرفه .قيل : وكيف يعرفه بالقدرة ؟ فقال : يعرف أن الله قادر ، إذا كان معه شيء أن يأخذه منه ، ويعطيه غيره ، وإذا لم يكن معه شيء أن يعطيه .

انظر : حلية الأولياء (٦٦/٨) لأبى نعيم ، الطبقات للسلمى (ص/٦٤) .

(١) عن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ فى قوله عز وجل ﴿ **كل يوم هو فى شأن** ﴾ الرحمن : ٢٩ قال : « من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين» حديث صحيح . أخرجه ابن ماجه (٢٠٢) ، وابن أبى عاصم (١٢٩/١) فى السنة ، وابن حبان (٥٢/٢) ، وأبو الشيخ فى العظمة (١٥٠) بتحقيقى ، وأبو نعيم (٢٥٢/٥) فى الحلية ، والبيهقى (ص / ٩٨) فى الأسماء والصفات .

* وكان مطر الوراق رحمه الله يقول : يحيى ميتاً ، ويميت حياً ، ويربى صغيراً ، ويجيب داعياً ، ويشفى سقيماً ، ومنتهى شكوى الصالحين ، ويعرض حاجات المؤمنين .

أخرجه أبو الشيخ (١٥٣) فى العظمة .

(٢) وبهذا تخضع كل جوارح العبد لربه ، فإذا وصل إلى ذلك ، فقد فاز بالوصول إلى بعض أسباب العبودية .

محيط بجميعه ، وخلقك فأحسن خلقك ، وصورك فأحسن صورتك (١)

فإذا ثبت ذلك فى قلبك ، وصح به عزمك ، فقد وصلت إليك المعرفة ، وقامت عليك الحجة ، وكُنتَ من اللَّهِ فى مَقام شريفٍ ، ويصحبك الحذر فى ذلك كله ، فحفظت جوارحك (٢) ، وقلبك ، ولا تصل إلى شيءٍ من هذا إلا بقطع الأشغال كلها ، والله تعالى لا يفارق قَلْبَكَ حذراً من سطواته ، بقدرته عليك لما قد سلف من ذُنوبِكَ ، وما قد سيكون فى المستقبل ، فتستحيى منه لقربه منك ، فلا تكون منك خطرة ، ولا لحظة ، ولا شيء منه ظاهر ، ولا باطن إلا وعلم الله عنك ، ذلك قائم على الخطرات ، والحركات ، والوساوس ، وهذا مقام الخائفين ، العارفين ، الأتقياء ، الورعين .

فنسأل الله تعالى ألا يحرمنا وإياك نفعها بذنوبنا ، إنه جواد كريم .

(١) مصداقًا لقوله عز وجل : ﴿ **يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك** ﴾ الانفطار : ٦ ، ٧ .

وقوله جل شأنه : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾ التين : ٤ .

قيل : خلق كل شيء منكباً على وجهه إلا الإنسان .

وقيل : فى أحسن صورة .

انظر : الدر المنثور (٣٦٦/٦ ، ٣٦٧) للسيوطى .

(٢) حفظ الجوارح كالتالى :

١ ـ **حفظ اللسان** ، فيمتنع العبد من الكذب ، والغيبة ، والنميمة ، ويظل لسانه مشغولاً بذكر الله ، والقول الصالح ، الطيب النافع ، وتلاوة القرآن ، ومذاكرة العلم المفيد .

٢ ـ **حفظ البصر** ، فلا ينظر بعيونه إلى حرامٍ ، ولا إلى الدنيا بعين الرغبة فيها ، وإنما ينظر إلى دلائل عظمة الله ، وإلى الدنيا على وجه العبرة والعظة .

٣ ـ **حفظ الأقدام** ، فلا يمشى العبد بقدميه إلى مكان يعلم أن معصية الله تقع فيه ، أو ستقع فيه ، بل يمشى إلى كل ما فيه إرضاء الله ، وثوابه .

٤ ـ **حفظ الأيدى** ، فلا يأخذ العبد بيديه ماليس له ، ويعطى الذى عليه ، ولا يمد يديه إلى حرامٍ ، أو شبهة الحرام ، إنما يمد إلى ما فيه طاعة الله ورضوانه .

٥ ـ **حفظ القلب** ، ويكون بإخراج كل مذمومٍ منه ، وإدخال كل محبوب إليه .

باب

معرفة عدو الله إبليس

٨ ـ فاعلم أن اللَّهَ تعالى أَمَرَكَ بمخالفة عَدوهِ وعدوك ، وهو إبليسُ ، فقال تبارك وتعالى :ـ

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخِذُوه عَدُوّاً ﴾ (١) .

فتعلم أن الشيطان يريد هلاكك (٢) ، وإبطال عملك ، فلا تظهر منك طاعة لله عز وجل إلا ويريد أن يبطلها عليك بمكرٍ وخديعة (٣) ، ويفسدها عليك بأنواع الرياء ، والعُجب ، والكبر ، وغير ذلك من مفسدات الأعمال مما يجهل كثير من خلق الله ، العابدين ، المغرورين والمخدوعين .

---

(١) سورة فاطر : ٦ .

(٢) المؤمن يرى ذلك منذ بداية الصراع بين الإنسان والشيطان ، وذلك عند خلق آدم عليه السلام ، وهو صراع أبدى إلى قيام الساعة .

وفى هذا الشأن يوضح لنا الرسول ﷺ شأن عداوة إبليس للمؤمن ، فيقول : « إذا أصبح إبليس بث جنوده ، فيقول : من أضل اليوم مسلمًا ، ألبسته التاج ، قال : فيخرج هذا فيقول : لم أزل به حتى طلق امرأته ، فيقول : أوشك أن يتزوج ، ويجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى عقَّ والديه ، فيقول : يوشك أن يبرهما ، ويجئ هذا فيقول : لم أزل به حتى قتل ، فيقول : أنتَ أنتَ ، ويجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى أشرك ، فيقول : أنت أنت ويلبسه التاج » حديث صحيح . أخرجه ابن حبان (٨/٢٤) ، والحاكم (٤/٣٥٠) وصححه ، وأقره الذهبى ، وانظر :
مجمع الزوائد (١/١٤١) للهيثمى .

(٣) وصدق الشيخ ، فإن الشيطان الملعون يقول للمرء منذ بداية تفكيره فى دخول الإسلام : أتسلم وتذر دينك ؟ ودين آبائك وأجدادك ؟ فإن نجا المرء من كيده لم يقنط الشيطان من إغوائه ، وتحريضه على فعل الكبائر =

٩ـ فليس مراد إبليس منك أن يوقعك فى المعصيةِ فقط ، فإنه لا حاجةله فى معصيتك ، وإنما مقصوده أن تدخل معه حيث يدخل فى جهنم ، أعاذنا الله منها .

فإذا عـرفت أن إبليسَ بهـذه الصفـة فالزم نفـسَكَ الحذَرَ منه ، وحـاربه أشد المحاربة، وجاهده أشد المجاهدة ، سراً وجهراً ، ظاهراً وباطناً ، لا تقصر فى ذلك ، حتى تظهر المعهود منك فى مجاهدته .

١٠ ـ ومجاهدته أن تحاربه فى كل مادعاك إليه من الشر والخيرِ وتكون معتصماً بالله تعالى فى هذا كله ، مُستَعيناً به على عدوك ، فإنه لا حيلةَ لك ، ولاقوة إلا بالله العليِ العظيم .

١١ ـ واستعن بالله ، بالبكاء ، والتضرع ، وتسأل الله النصر عليه ليلاً ونهاراً ، فى الخلاء والملأ (١) .

= من الذنوب والخطايا .

فإن وُفق المرء للسلامة من كيده ، ونجا من سهامه ، حببٌ الشيطان إلى الإنسان عمل البدعة ، وهي أحب إلى إبليس من المعصية .

فإن يسرٌ الله الهداية لعبده ، فتخلص من كيده ، لم ييأس الشيطان ، بل ذكره بصغار الذنوب ، وهون من شأنها ، وأنها بجوار رحمة الله وسعتها لاوزن لها .

فإن عجز الشيطان عن الوصول إلى هدفه سريعاً ، فكر فى مكيدة شنيعة ، وهى إشغال المرء بالأمور التى هى فى عداد المباحات ، فلا يثاب عليها ، فيضيع عمره ، وبركة وقته .

وآخر مكائده للمؤمن هو أن يشغله بالعمل المستحب عن العمل المفروض .

(١) هذا يقود المرء حتمًا إلى التعرف على الأبواب والمداخل التى يدخل بها الشيطان إلى قلوب العباد ، وأعمالهم .

قال بعض الحكماء من السلف الصالح .

نظرت وتفكرت من أى باب يأتى الشيطان إلى الإنسان ، فإذا هويأتى من عشرة أبواب ، أولها : يأتى من قبل الحرص وسوء الظن ، فقابلته بالثقة والقناعة ، فقلت : بأى آية أتقوى عليه من كتاب الله تعالى ، فوجدت قول الله عز وجل : ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها** ﴾ هود : ٦ ، فكسرته بذلك .

والثانى : نظرت فإذا هو يأتى من قبل طول الأمل فى الحياة ، فقابلته بخوف مفاجأة الموت ، فقلت بأى آية أتقوى عليه ، فوجدت قول الله تعالى : ـ =

١٢ ـ وإذا غفلت عن محاربة عدوك إبليس ، وقد عصيت ، وأعطيته مراده منك ، فلا يقنع منك عدوك إبليسُ حتى يوقعك فى الكفر بالله

=﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ سورة لقمان : ٣٤ فكسرته بذلك ، .

والثالث : نظرت فإذا هو يأتى من قبل الراحة ، وطلب النعمة ، فقابلته بزوال النعمة وسوء الحساب ، فقلت : بأى آية أتقوى عليه ، فوجدت قوله تعالى : ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا** ﴾ الحجر : ٣ ، فكسرته بذلك .

والرابع : نظرت فإذا هو يأتى من باب العجب ، فقابلته بالمنة ، وخوف العاقبة ، فقلت : بأى آية أتقوى عليه ، فوجدت قول الله تعالى : ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ هود : ١٠٥ ، فلا أدرى من أى الفريقين أكون فكسرته بذلك .

والخامس : رأيته يأتى من باب الاستخفاف بالإخوان ، وقلة حرمتهم ، فقابلته بمعرفة حقهم ، وحرمتهم ، فقلت : بأى آية أتقوى عليه ، فوجدت قول الله تعالى : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾ سورة المنافقون : ٥ ، فسكرته بذلك .

السادس : نظرت ، فإذا هو يأتى من باب الحسد ، فقابلته بالعدل ، وقسمة الله تعالى فى خلقه ، فقلت : بأى آية أتقوى عليه ، فوجدت قول الله تعالى : ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا** ﴾ الزخرف : ٣٢ ، فكسرته بها .

السابع : نظرت ، فإذا هو يأتى من باب الرياء ، ومدح الناس ، فقابلته بالإخلاص ، فقلت : بأى آية أتقوى عليه ، فوجدت قول الله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً،ولايشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ الكهف : ١١٠، فكسرته بها .

الثامن : نظرت فإذا هو يأتى من باب البخل ، فقابلته بفناء ما فى أيدى الخلق ، وبقاء ما عند الله تعالى ، فقلت : بأى آية أتقوى عليه ، فوجدت قول الله تعالى : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾ النحل : ٩٦ ، فكسرته بها .

التاسع : نظرت فإذا هو يأتى من باب الكبر ، فقابلته بالتواضع ، فقلت : بأى آية أتقوى عليه ، فوجدت قول الله تعالى : ﴿ **إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ فكسرته بها .

العاشر : نظرت فإذا هو يأتى من باب الطمع ، فقابلته بالإياس من الناس ، والثقة بما عند الله ، فقلت بأى آية أتقوى عليه ، فوجدت قول الله تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له**=

تعالى ، لأنه ينقلك من حال إلى حال ، حتى يغضب الله عليك (١) .

فـالله ، الله ، لا تأمنه ، فلا خـلق أشد عليك منه ، فـالحذر ، الحـذر ، فإنما هى غمـضة ، ثم القدوم إلى الغضب ، أو إلى النجـاة بفضل الله (٢) ، أعاذنا الله وإياك من إبليس وجنوده .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .

☆☆☆☆

= مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ الطلاق : ٢ .

انظر : تنبيه الغافلين (ص/٤٧٨) للسمرقندى .

(١) هذا مثل قصة الراهب برصيصًا العابد ، والشيطان ، انظر تفاصيلها :

المستـدرك (٢/٤٨٤ ، ٤٨٥) للحاكـم ، وتفسـيـر ابن جـرير (٢٨/٣٣) ، تلبيس إبليس (ص/٢٧) لابن الجـوزى ، وتنـبيـه الغـافلين (ص/٤٨٠ ، ٤٨١) ، والـدر المنثـور (٦/٢٠٠) للسيوطى .

(٢) يقول يونس بن عبيد : دخلنا على محمد بن واسع نعوده ، فقال : وما يغنى عنى ما يقول الناس ، إذ أخذ بيدى ، ورجلى ، فألقيت فى النار !!

يا إخوتاه ، تدرون أين يذهب بى ، والله الذى لا إله إلا هو إلى النار أو يعفو عنى .

انظر : محاسبة النفس : (ص / ٥١) ، الحلية (٢/٣٤٨) .

باب
معرفة نفسك

١٣ ـ اعلم أن النفسَ أمارةٌ بالسوءِ ، يعني أنها تأمرك ـ نفسك ـ بكل قبيح ، وبكل سوءٍ ، كما قال الله تعالى :ـ

﴿ إِنَّ النَّفسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (١) .

فينبغي لك أن تضعها حيث وضعها الله تعالى ، وقم عليها بما أمرك الله فيها (٢) ، فإن نفسك أغوى لك من إبليس . (٣)

---

(١) سورة يوسف : ٥٣ .

(٢) المؤمن مع نفسه لايتوانى عن مجاهدتها ، فإن رأها تتكبر قال لها : هل أنت إلا قطرة من ماء مهين ، تقتلك شرقة ، وتؤلمك بقة ؟!

وإن رأى تقصيرها عرفها حق الموالى على العبيد .

وإن ونت فى العمل حدثها بجزيل الأجر .

وإن مالت إلى الهوى ، خوفها عظيم الوزر ، ثم يحذرها عاجل العقوبة الحسية كقوله تعالى ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴾ الأنعام : ٤٦ .

فهذا جهاد بالقول ، وذاك جهاد بالفعل ، انظر : صيد الخاطر (ص/٨٣) لابن الجوزى .

(٣) ومن تأمل حال السلف الصالح ، رأى العجب فى مجاهدتهم لأنفسهم .

* قال مالك بن مغول : كان رجل يبكى فيقول له أهله : لوقتلت قتيلاً ، ثم جئت لأهله تبكى لعفوا عنك ؟! فيقول : إنما قتلت نفسى .

انظر : محاسبة النفس (ص/٧٢) لابن أبى الدنيا .

* وقال زائدة بن قدامة : كان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت : رجل قد أصيب بمصيبة ، ولقد قالت له أمه : ماهذا الذى تصنع بنفسك ؟تبكى الليل عامته !! لا تكاد أن تسكت ، لعلك يابنى أصبت نفساً ، لعلك قتلت قتيلاً ؟ فيقول : يا أماه ، أنا أعلم بما صنعت نفسى .انظر : الحلية (٤١/٥) ، صفة الصفوة (١١٤/١١٢/٣) .

* مَرَّ حسان بن أبى سنان بغرفة ، فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه ، فقال : تسألين عما لا يعنيك ، لأعاقبنك بصوم سنة ، فصامها .

انظر : محاسبة النفس (ص/٤٢) ، الحلية (١١٥/٣) ، صفة الصفوة (٣٣٩/٣).فأين نحن من هؤلاء ؟ اللهم امنن علينا بعفوك وسترك .

١٤ ـ وإنما يستعين عليك الشيطان بها ، فاعرف مرادها إلى ماتدعو ، وبما تأمرك ، فدعوها باطل ، وصدقها كذباً ، وكل شيء منها غرور ، وليس لها محمود ، ولادعوى حق (١) .

فلا تغرك نفسك بما تضمر لك من تواضعها ، فإن أعطيتها سؤالها مُلكتْ وإن أغفلت عن محاسبتها أدبرت (٢) .

١٥ ـ وإن اتبعت هواها خسرت فلا تفرح يا مغرور بظاهر أعمالها ، ولا تلتفت إلى محاسن وصفها للتزين ، وكثرة أعمالها بلا صدق فيه ، ولا خوف عاقبته ، ولكن انظر وتدبر ما بين قولها وفعلها ، وسوء ضميرها .

---

(١) ولعل فى الخبر التالى توضيح الأمر :

يذكر أبو أمية الغفارى أنه كان فى غزوة ، فحضر العدو ، فصيح فى الناس ، فهم يثوبون إلى أمكانهم ، وفى يوم شديد الريح ، إذا رجل أمامى ، رأس فرسى عند عجز فرسه ، وهو يخاطب نفسه ، فيقول : أى نفس ، ألم أشهد مشهد كذا وكذا ، فقلت لى : أهلك وعيالك ، وأطعتك فرجعت ، ألم أشهد مشهد كذا ، وكذا ، فقلت لى : أهلك وعيالك ، فأطعتك ورجعت ، والله لأعرضنك اليوم على الله عز وجل ، أخذك أوتركك .

فقلت : لأرمقنه اليوم ، فرمقته ، فحمل الناس على عدوهم ، فكان فى أوائلهم ، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا ، وكان فى حمايتهم ثم حملوا على عدوهم ، فكان فى أوائلهم ، ثم حمل العدو ، وانكشف الناس ، فكان فى حماتهم . قال : فو الله ، مازال ذلك دأبه حتى رأيته صريعاً ، فعددت به، وبدابته ستين ، أو أكثر من ستين طعنة .

انظر : محاسبة النفس (ص/٤٥) لابن أبى الدنيا .

فأنى يصل إلى الشهادة ، ونفسه تقول له : أهلك وعيالك ، وهو لها مطيع ؟!

(٢) يقول وهب بن منبه رحمه الله : ـ الإيمان قائد ، والعمل سائق ، والنفس بينهما حرون ـ أى واقفة بينهما ـ فإذا قال القائد ، ولم يسق السائق لم يغن ذلك شيئاً ، وإذا ساق السائق ، ولم يقد القائد ، لم يغن ذلك شيئًا ، فإذا قاد القائد وساق السائق اتبعته النفس طوعاً وكرهاً ، وطاب العمل .

انظر : حلية الأولياء (٤/٣٠) ، صفة الصفوة (٢/٢٩٥) لابن الجوزى .

فإنَّ نفسَكَ إن لم تشكر لها طاعتها ، وبرها لها إحسانها ، ومعروفها ، وإلا غضبت .

١٦ ـ وإن لم تظهر الغضب ، ولا أضمرته ، وذلك كله زيادة فى شرها ، فاحذر أن تقطع بها نفسك فى موضع تحتاج فيه إلى صبرها ، أوفى موضع تحتاج فيه إلى صدقها ، أو فى موضع تحتاج فيه إلى خلاصها ، فتخشى أن تخذلك فى ذلك كله (١) .

---

(١) ومن المواقف التى يتجلى فيها خذلان النفس للمرء لحظة الموت والاحتضار ، يقول ابن القيم رحمه الله :

شاهد الناس كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك ، حتى قيل لبعضهم :

قل « لا إله إلا الله » فقال : آهٍ .... آهٍ ، لا أستطيع أن أقولها .

وقيل لآخر : قل « لا إله إلا الله » فقال : شاه ، رخ ، غلبتك ، ثم قضى .

وقيل لآخر : قل « لا إله إلا الله » فقال : ـ

يارُبَّ قائلةً يوماً وقد تعبت كيف الطريق إلى حمام منجاب ؟

وقيل لآخر : قل « لا إله إلا الله » فجعل يهذى بالغناء ، ويقول :تاتنا ، تاتنا حتى قضى .

وقيل لآخر ذلك ، فقال : ماينفعنى ما تقول ، ولم أدع معصية إلا ركبتها ، ثم قضى ، ولم يقلها .

وقيل لآخر ذلك ، فقال : ماينفعنى ما تقول ، وما يغنى عنى ، وما أعرف أنى صليت لله صلاة ، ولم يقلها ؟!

وقيل لآخر ذلك ، فقال هو كافر بما تقول ، وقضى .

وقيل لآخر ذلك ، فقال : كلما أردت أن أقولها لسانى يمسك عنها وأخبرنى من حضر بعض الشحاذين عند موته ، فجعل يقول : لله ، فلس لله ، فلس لله ، حتى قضى .

وأخبرنى بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر ، وهو عنده ، وجعلوا يلقنونه « لا إله إلا الله » وهو يقول : هذه القطعة رخيصة ، هذا مشترى جيد ، هذه كذا حتى قضى .

وسبحان الله !! كم شاهد الناس من هذا عبراً ؟! والذى يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم .

انظر : الداء والدواء (ص/١٣١ ، ١٣٢) لابن قيم الجوزية .

١٧ ـ فاحذر اللَّهَ تعالى فى طاعتك له ، كما تحذره فى معصيتك ، واحذر إذا خطر ببالك أمراً ،ودعتك نفسُكَ إلى شىء فلا تعجل ، وارفق بنفسك ، وسل العلماءَ ، وجالس الفقهاء بالله تعالى (١) ، بأمره ، ونهيه حتى يدلوك على طريق اللَّهِ تعالى ، ويدلوك على دوائك ، ويعرفوك بدائك (٢) .

احذر الغرور بالطاعات :

١٨ ـ ولا يغرك طولُ قيام الليل ، وكثرة صيام النهار ، والنوافل الظاهرة بلا معرفة منك بنفسك ، وبقدرتك ، وبربك عز وجل (٣) .

فعند ذلك تورث العلم ، والفقه .

فما كان من عملك ظاهراً أو باطناً ، نظرت ، فإن كان لله خالصاً ،

---

(١) من حكم لقمان الحكيم لابنه :ـ

« يابنى جالس العلماء ، وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله تعالى يحيى القلوب بنور الحكمة ، كما يحيى الأرض بوابل السماء »

أخرجه ابن المبارك (١٣٨٧) فى الزهد ، وأحمد (ص/١٣٣) فى الزهد ، والطبرانى ، والرامهرمزى فى الأمثال مرفوعاً ، ولم يصح ، انظر : الدر المنثور (١٦٢/٥) .

(٢) يقول ابن الجوزى فى التذكرة (ص/٥٣) :فمن كان داؤه المعصية فشفاؤه الطاعة ، ومن كان داؤه الغفلة فشفاؤه اليقظة ، ومن كان داؤه كثرة الاشتغال فشفاؤه فى تفريغ البال .

كل العافية فى الذكر والطاعة ، وكل البلاء فى الغفلة والمخالفة ، وكل الشفاء فى الإنابة والتوبة .

(٣) وفى مثل ذلك يقول بكر بن عبد الله المزنى رحمه الله : ـ

« ما فضلكم أبو بكر بفضل صوم ، ولا صلاة ، ولكن بشىءٍ وقر فى قلبه » أخرجه الترمذى الحكيم (ص/٨١) فى الصلاة ومقاصدها .

انظر : إتحاف السادة المتقين (٣٢٤/١) ، (٦٦/٢) للزبيدى .

صادقًا قبله الله منك ، وجازاك عليه ، وإن كان غيرذلك رده عليك (١) .

فإذا كنت كذلك فقد أُعطيتَ كُلَّ خُلُقٍ حسنٍ ، وصح فعلك ، وثبت عملك ، وزاد حلمك ، وكنتَ من أوليــاء الله تعالى ، الذين ينظرون به، وبه يأخذون وبه يعطون .

١٩ ـ واعلم أنك لا تصل لشيءٍ مما وصفنا إلا : بالعزمِ الصحيح ، والنية الجيدة على مخالفة هوى نفسك .

فأول مخالفة الهوى ضبط البطن عما حرم الله تعالى ، فإن العبد إذا

---

(١) عن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك » . حديث صحيح . يقول السمرقندى : ـ

ففى هذا الخبر دليل على أن الله تعالى لا يقبل من العمل شيئاً إلا ما كان خالصاً لوجهه ، فإذا لم يكن خالصاً فلا يقبل منه ، ولا ثواب له فى الآخرة ، ومصيره إلى جهنم ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها** ﴾ الإسراء : ١٨ .

يعنى من أراد بعمله الدنيا ، ولا يريد ثواب الآخرة ، أعطيناه فى الدنيا ، مقدار ما شئنا من عرض الدنيا لمن نريد ، يعنى لمن نريد أن نهلكه ، ويقال لمن نريد أن نعطيه بإرادتنا أى متاع ، لا بإرادته ﴿ **ثم جعلنا له جهنم** ﴾ يعنى أوجبنا له فى الآخرة جهنم يصلاها يعنى يدخلها ﴿ **مذموماً** ﴾ يستوجب المذمة ، يعنى بذم نفسه ، ويذمه غيره ، ﴿ **مدحوراً** ﴾ يعنى مطروداً ، مبعداً من رحمة الله تعالى ، ﴿ **ومن أراد الآخرة** ﴾ يعنى من أراد ثواب الآخرة ، ﴿ **وسعى لها سعيها** ﴾ يعنى عمل للآخرة عملاً من الأعمال الصالحة ، خالصاً لوجهه ﴿ **وهومؤمن** ﴾ يعنى مع العمل يكون مؤمناً ، لأنه لا يقبل العمل بغير إيمان ﴿ **فأولئك** ﴾ يعنى الذين يعملون ، ويطلبون ثواب الآخرة ، ولا يعملون لرياء الدنيا ، ﴿ **كان سعيهم مشكوراً** ﴾ يعنى عملهم مقبولاً .

فمن عمل لغير وجه الله فلا ثواب له فى الآخرة ، ومأواه جهنم ، ومن عمل لوجه الله تعالى فعمله مقبول ، وإذا عمل لغير وجه الله تعالى ، فلا نصيب له من عمله إلا العناء والتعب كما جاء فى الخبر .

انظر : تنبيه الغافلين (ص/ ٥ ، ٦) .

ضبط بطنه ملك جوارحه (١) ، وعرف قلبـه ، وهانت عليه المحاسبة و هان عليه سائر مخالفات النفس فيما تهوى بإذن الله تعالى (٢) .

٢٠ - فإن سيبت بطنك ولم تحفظه صعب عليك الأمر (٣) ، وتمنعت

---

(١) وعلامة هذا الضبط للبطن ، هو الاحتماء من النار بأكل الطيب الحلال .

* قال ابن شبرمة رحمه الله : العجب ممن يحتمى من حلال مخافة الداء ، فكيف لا يحتمى من الحرام مخافة النار . والبُعد عن أكل الشبهات ، وطعام الفساق ، وأكل الحلال الصرف بقدر الحاجة ، لتقوى النفس على القيام بعبادة الله .

* قيل لبعض الحكماء : ما خير المكاسب ؟ قال : أما خير مكاسب الدنيا ، فطلب الحلال لزوال الحاجة ، والأخذ منه لعدة العبادة ، وتقديم فضل زاد ليوم القيامة ، وأما خير مكاسب الآخرة ، فعلم معمول به نشرته ، وعمل صالح قدمته ، وسنة حسنة أحييتها ، قيل : وماشر المكاسب ؟ قال : أما شر مكاسب الدنيا فحرام جمعته ، وفى المعصية أنفقته ، ولمن لا يطيع ربه خلفته ، وأما شر مكاسب الآخرة ، فحق أنكرته حسداً ، ومعصية قدمتها إصراراً ، وسنة سيئة أحييتها ، انظر : تنبيه الغافلين (ص/ ٣٥٧).

(٢) يقول ابن سيرين : إن رجلاً قال لابن عمر : أجعل لك جوارش ؟

قال : وأى شيءٍ الجوارش ؟ قال : شيء إذا كظك الطعام ، وأصبت منه سهل عليك . فقال ابن عمر : ما شبعت من الطعام منذ أربعة أشهر ، وماذاك ألا أكون له واجداً ، ولكن عهدت قوماً يشبعون مرة ، ويجوعون مرة . انظر : الزهد لأحمد (ص/ ٢٣٧) .

* وقال المنهال الراسبى : دخلت على الحسن ، فوافيته يتغدى خبزاً ولحماً ، فقال : هلم إلى طعام الأحرار ، فقلت : أكلت حتى لا أستطيع أن آكل . فقال الحسن : سبحان الله !! ويأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل .

المصدر السابق (ص/٣٢٨) .

* وقال بشر الحافي : خصلتان يقسِّيان القلب : كثرة الأكل ، وكثرة الكلام . انظر : الحلية (٨/ ٣٥٠) .

فهكذا ضبطوا بطونهم ، فنالوا خير الدنيا بالراحة ، والبعد عن الأمراض ، وخير الآخرة بنشاطهم فى الباقيات الصالحات.

(٣) قال لقمان لابنه وهو يعظه :ـ

« يابنى ، إياك والشبع ، فإنه مخونة بالليل ، ومذمة بالنهار، وفى رواية : مذلة بالنهار » . أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٨٢/٦) .

* وقال أيضاً لابنه : ـ يابنى لا تأكل شبعًا فوق شبع ، فإنك إن تنبذه إلى الكلب خير=

عليك جوارحك ، وضاع قلبك ، ولم تعرف حالك ، ولم تقدر على المحاسبة (١)

الطريق إلى الأدب مع الله تعالى :

٢١ - وإذا أردت الطريق إلى الأدب مع الله تعالى فاستعن بالله تعالى ، وخذ المعلوم من الطعام (٢) وتصفيه من الآفات (٣) ، ويكون وردك معلوماً

☆☆☆☆

= لك ، ويابنى لا تكونن أعجز من هذا الديك الذى يصوت بالأسحار ، وأنت نائم على فراشك ».أخرجه البيهقى (٥٦٩٨) فى شعب الإيمان ، وانظر : تفسير القرطبى ١٢٥/٧) ، والدر المنثور (١٦٣/٥) للسيوطى .

(١) يقول الحسن البصرى رحمه الله : لا تلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ، ماذا أردت بكلمتى ، ماذا أردت بشربتى ؟ والعاجز يمضى قدماً .

أخرجه ابن أبى الدنيا (٤) فى محاسبة النفس ، وعبد بن حميد كما فى الدر المنثور (٢٨٧/٦) وانظر : إغاثة اللهفان (٩٤/١) تفسير ابن كثير (٤٤٧/٤) .

(٢) هذا المعلوم من الطعام خير مَنْ حدده النبى العدنان ﷺ ، فقال :

« بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان ولابد ثلث لطعامه ، وثلثه لشرابه ، وثلثه لنفسه ».

حديث صحيح . أخرجه أحمد (١٣٢/٤) والترمذى (٢٤٨٦) ، وابن ماجه (٣٣٤٩) ، والحاكم (٣٣١/٤) وصححه ، وأقره الذهبى .

* قال ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم : هذا الحديث أصل جامع لأصول الطب كلها.

وقد روى أن ابن أبى ماسويه الطبيب لما قرأ هذا الحديث فى كتاب أبى خيثمة ، قال : لو استعمل الناس هذه الكلمات لسلموا من الأمراض ، والأسقام ، ولتعطلت المارشاديات ، ودكاكين الصيادلة .

(٣) أى الحرام ، والشبهة ، والتملق ، والغش ، والخداع .

حفظ اللسان والجوارح :

٢٢ ـ واحفظ لسانَكَ إلا فيما يعنيك ، مما لابد لك منه ، من أمر ، ونهي مما

يكون قربة إلى الله تعالى . (١)

---

(١) صدق والله فيما قال ، فإنه لايلفظ من ابن آدم أى قول ، إلا كان لديه ما يراقبه ، ويدونه عليه ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ **مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ ق : ١٨ .

* وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : « من صمت نجا» . حديث صحيح أخرجه أحمد (١٥٩/٢) ، والترمذى (٢٦١٨) ، والدارمى (٢٩٩/٢) ، وهو من رواية العبادلة عن ابن لهيعة .

* وصد ق الحسن البصرى عندما قال : « ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه »

أخرجه ابن المبارك (١٣١) فى الزهد ، وأحمد (ص/٢٧١) فى الزهد .

* وقال يزيد بن حيان التيمى : كان يقال : ينبغى للرجل أن يكون أحفظ للسانه ، منه لموضع قدمه » .

أخرجه ابن أبى الدنيا (٣٢) فى الصمت .

وعدم حفظ اللسان يوقع المرء فى آفات اللسان ، وهى كثيرة ، ولعل أهمها :

١ ـ الخوض فى الباطل . ٢ ـ المراء والتقعرفى الحديث . ٣ ـ الغيبة والنميمة .

٤ـ الكذب والبذاء .٥ ـ السخرية والاستهزاء .

أما حفظ اللسان ففوائده غزيرة ، ولعل من أهمها : ـ

١ ـ الصمت عبادة من غير عناء ، فصمت المؤمن التفكر فى عظمة الله تعالى .

٢ ـ زينة من غير حلى ، فالصمت زين للعالم ، وستر للجاهل .

٣ـ هيبة لصاحبه من غير سلطان .

٤ ـ الاستغناء عن الاعتذار إلى أحد .

٥ ـ من قل كلامه ، قل سقطه ، ومن قل سقطه قلت ذنوبه ، ومن قلت ذنوبه فالجنة هى المأوى .

ويجمل حال السلف الصالح فى ذلك قول عطاء بن أبى رباح رحمه الله ، إذ يقول :

إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ،وكانوا يعدون كل كلام فضولاً ما =

ومع ذلك تحفظ سمعكَ ، وبصرك ، ويديك ، واحفظ رجليك ، وانظر فيما تمشى ، ولم تمشى ، وتتعاهد هذه الجوارح ، وتستعين عليها بحفظ القلب ، حتى تراقب اللّهَ في أنفاسك ، وهمومك ، فلا جهاد أعظم من الجهاد الذى أنت فيه (١) .

☆☆☆☆

= عدا كتاب الله تعالى ، أن يقرأه أحد ، أو أمرًا بالمعروف ، أونهياً عن المنكر ، أو تنطق فى حاجتك فى معيشتك التى لابد لك منها .

أخرجه السمرقندى (ص/١٦٦) فى التنبيه .

(١) وفى مثل ذلك صح قوله ﷺ : « المجاهد من جاهد نفسه » .

أخرجه ابن المبارك (ص/ ٣٦) فى الزهد ، وأحمد (٦/ ٢٠) ، والترمذى (١٦٢١) ، وابن أبى الدنيا (٦٤) فى محاسبة النفس ، وابن حبان (٧/ ١٠٣ ، ١٧٨) .

* وقال ابن خارجة لعبد الله بن عمرو : كيف تقول فى الجهاد والغزو ؟

قال : ابدأ بنفسك فجاهدها ، وابدأ بنفسك فاغزها ، فإنك إن قتلت فاراً بعثك الله فاراً ، وإن قتلت مرائياً ، بعثك الله مرائياً ، وإن قتلت صابراً محتسباً ، بعثك الله صابراً محتسباً .

انظر : محاسبة النفس (٦٢) .

وقال الأصم : الجهاد ثلاثة : جهاد فى سرك مع الشيطان حتى تكسره ، وجهاد فى العلانية فى أداء الفرائض حتى تؤديها كما أمر الله ، وجهاد مع أعداء الله فى عز الإسلام .

انظر : الزهد للبيهقى (٧٤١) .

أما حديث : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ويقصد بالأكبر جهاد النفس ، فهذا لم يصح ، وأخرجه الخطيب (١٣/ ٤٩٣) فى تاريخ بغداد .

ملاك الأمر : التواضع .

٢٣ - وأصل هذه الأشياء كلها وتمامها ، وملاكها بإذن الله تعالى : التواضعُ .

فأنت إذا تواضعت وصلت إلى هذه الأشياء كلها ، وقويتَ عليها ، وعلى أكثر منها ، فعند ذلك ينشرح صدرك بإذن الله تعالى ، ويمتلأ قلبك نوراً ، ويعلمك اللهُ مالم تكن تعلم (١) .

---

(١) يعلمنا النبى ﷺ فضلاً من فضائل التواضع فى الدنيا ، والآخرة ، فيقول :

« **ما تواضع أحد لله إلا رفعه** » حديث صحيح ، أخرجه مسلم (٢٥٨٨) .

وفيه وجهان : **أحدهما** يرفعه فى الدنيا ، ويثبت له بتواضعه فى القلب منزلة ، ويرفعه الله عند الناس ، ويجل مكانه .

والثانى : أن المراد ثوابه فى الآخرة ، ورفعه فيها بتواضعه فى الدنيا ، ولا مانع من الاثنين معاً ، وفضل الله أعظم من كل فضل .

ونبينا ﷺ هو إمام المتواضعين ، يقول الحسن البصرى رحمه الله :

« والله ما كانت تغلق دونه الأبواب ، ولايقوم دونه الحجاب ، ولا يُغدى عليه بالجفان - القصعة الكبيرة - ، ولا يراح عليه بها ، ولكنه كان بارزاً ، من أراد أن يلقى نبى الله لقيه ، وكان يجلس بالأرض ، ويضع طعامه بالأرض ، يلبس الغليظ ويركب الحمار، ويردف عبده ، ويعلف دابته بيده ﷺ .

ولقد قرر الأئمة الأعلام مكانة التواضع .

* تقول عائشة - رضى الله عنها - : إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة : التواضع .

انظر : الزهد لأحمد (ص/٢٠٦) .

* وقال يحيى بن أبى كثير : أفضل العبادة : التواضع .

انظر : حلية الأولياء (٣/٦٨) .

* وقال الفضيل لسفيان بن عيينة : إن كنت ترى أن فى هذا المسجد أحدًا هو دونك ، لقد ابتليت ببلية عظيمة .

انظر : الحلية (٨/١٠١) .

محاسبة النفس ومخالفتها :

٢٤ ـ وعليك يا أخى بمحاسبة نفسك (١) ، ومعرفتها ، ومخالفتها فى جميع ما تدعو إليه ، ولا توصف النفس بشىء إلا وفيها من الرذائل أكثر مما توصف به .

وهى كنز إبليس ، ومستراحه ، وصديقته ، فإذا عرفت نفسك هانت

(١) محاسبة النفس صفة الصالحين ، وزاد المتقين إلى جنات النعيم .

ومن جواهر كلام السلف فى ذلك :

* قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : « **حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم فى الحساب غداً ، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية** » أحمد (ص/ ١٤٩) فى الزهد ، وأبو نعيم (٥٢/١) فى الحلية ، وابن الجوزى (٢٨٦/١) فى صفة الصفوة

* وقال الحسن البصرى رحمه الله : « **إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة من همته** » محاسبة النفس (٦) لابن أبى الدنيا .

* وقال ميمون بن مهران رحمه الله : « **لا يكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه** » الحلية (٨٩/٤) .

* وقال مالك بن دينار رحمه الله : « **رحم الله عبداً قال لنفسه النفيسة : ألست صاحبة كذا ، ألست صاحبة كذا ، ثم ذمها ، ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله ، فكان لها قائدا** » محاسبة النفس (٨) لابن أبى الدنيا .

* ويجمل تلك الكلمات قول الحسن البصرى رحمه الله : ـ

« المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله عز وجل ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم، حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم ، أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة.

إن المؤمن يفجأه الشىء ويعجبه ، فيقول : والله إنى لأشتهيك ، وإنك لمن حاجتى ، ولكن والله ما من صلة إليك ، هيهات حيل بينى وبينك ، ويفرط منه الشىء فيرجع إلى نفسه ، فيقول : هيهات ، ما أردت إلى هذا ، ومالى ولهذا ، ما أردت إلى هذا ، ومالى ولهذا ، والله ما أعذر بهذا ، والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلكتهم ، وإن المؤمن أسير فى الدنيا، يسعى فى فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله ، يعلم أنه مأخوذ عليه فى سمعه ، وفى بصره ، وفى لسانه ، وفى جوارحه ، مأخوذ عليه فى ذلك كله » الحلية (١٥٧/٢) .

عليك ، وقويت عليها .

٢٥ ـ فإذا عرفت من نفسك ثلاث خصال فاثبت ، واستعن بالله تعالى عليهن ، ولا تغفل ، وهى : أن نفسك إذا أظهرت خوفاً ، فاعلم أنه أمان ، وإن ادعت صدقاً فهو كذب ، وإن ادعت إخلاصاً ، فاعلم أنه رياء ، وإعجاب ، وعند الحقائق يتبين صدقها ، أو يعرف كذبها ، فليس بلاء عظيم إلا و قد حل بها .

٢٦ ـ فعليك يا أخى ببذل مجهودك ، ولا تميلين (١) فى هذا كله إلى أحدٍ غير الله تعالى ، فإنك إن فعلت ذلك توفق إلى خير ، ولا يكلك الله إلى نفسك (٢) .

٢٧ ـ فبالله استعن واتبع مرضاته فى جميع أمورك به (٣) ، ولا تريد بعملك أحداً إلا الله ، فإنك إذا فعلت ذلك ، وقصدت إلى الله عز وجل ، أرشدك الله ـ إن شاء الله ـ ووفقك ، وجنبك مكارهه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

---

(١) كذا بالأصل ، والأليق تميلن .

(٢) الخذلان أن يكل الله العبد إلى نفسه ، والتوفيق أن يتولى الله أمره .

لذا فالتوكل الحقيقى أن يكل المؤمن كل أموره بالكلية إلى الله سبحانه وتعالى ، ويرضى بحسن اختياره له ، ويكثر من استخارته ليلاً ونهاراً .

(٣) وطريقة ذلك : إيثار طاعة الله تعالى ، واجتناب مخالفته ، والإقبال بالكلية عليه، والرجوع فى كل هم ، ونائبة إليه ، وترك الركون إلى الخلق ، والاعتماد عليهم ، بل الاعتماد على الله ، والتوكل عليه ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾ الطلاق :٣ .

واعلم أن الخلق كلهم عاجزون ، ومن عجز عن نفع نفسه ، كيف يقدر على نفع غيره ؟!.

ولذلك قال بعض السلف : « **استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون** »

وألا يشغلك عن الله تعالى أهل ، ولا مال ، ولا ولد ، فتخسر عمرك ، قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون** ﴾ المنافقون : ٩ .

انظر : عيوب النفس (ص/ ٤١) للسلمى بتحقيقى .

باب
معرفة العمل وإخلاصه

قال أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله :

٢٨ ـ اعلم أن الله تبارك وتعالى أمرك بأمرٍ ، ونهاك عن أمرٍ ، فالذى أمرك به هو الطاعةُ ، والذى نهاك عنه هو المعصية .

وأمر بالإخلاص فيهما جميعاً ، والقصد إلى سبيل الهدى ، على طريق الكتاب والسنة ، ولا يكون فى ضميرك فى أفعالك كلها إلا الله تعالى .

٢٩ ـ ولا تكن ممن ترك المعاصى الظاهرة ، ولم يترك المعاصى الباطنة ، فإن الله تعالى وعد المغفرة على هذا ، وضمن الثواب عليه (١) .

احذر فساد النية :

٣٠ ـ ولا تجتهد فى العبادة فى الظاهر بفساد نيتك ، لأن التقرب إلى الله تعالى ، إنما هو باتباع الطاعة ، واجتناب المعصية ، وليس المطيعُ متقرباً إلى ربه حتى يكون مجتنباً لمعاصى ربه .

---

(١) يتضح ذلك فى قول الحق جل شأنه : ﴿ **وذروا ظاهر الإثم وباطنه** ﴾ الأنعام : ١٢٠
* قال العلامة القرطبى : للعلماء فيه أقوال كثيرة ، وحاصلها راجع إلى أن الظاهر ما كان عملاً بالبدن ، مما نهى الله عنه ، وباطنه ما عُقد بالقلب من مخالفة أمر الله فيما أمر ونهى ، وهذه المرتبة لا يبلغها إلا من اتقى وأحسن ، كما قال : ﴿ **ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا** ﴾ المائدة : ٩٣ .
انظر : تفسير القرطبى (٧/٤٩) .

فإذا كـانت نيتك فاسـدة ، ولو كنت مطيعاً في ظاهرك ، فـإن طاعتك ترجع معصية كلها ، فيحل بك عقوبات في الدنيا مع العقاب في الآخرة .

فتتعب بدنك ، وتترك شهوتك ، ولذتك ، وتحل بك هذه الرزية ، فتخسر الدنيا والآخرة ، ونعوذ بالله من هذا (١) .

فينبغي لك أن تزين طاعتك بالتقوى (٢) ، والإخلاص (٣) ، والورع (٤)، ونيتك بالصدق .

فاحفظ إرادتك بالمحاسبة ، وتكون همتك صلب النية ، ويكون عزمك صلب الإخلاص في فعلك ، وقولك ، في جميع أحوالك .

٣١ ـ واحذر أن يخدعك إبليس ، ويصرعك ، ويوقعك في فخوخه ، ويذهب عملك بمكره ، وخدعه ، فإن له مصائد ، وغوائل شهية .

وإن له طريقًا لذيذاً ، يحسبه الجاهل نوراً ويقيناً ، وهو شك وظلمة .

---

(١) من عيوب النفس : الاشتغال بتزيين الظواهر ، وإغفال البواطن ، والتخشع من غير خشوع ، والتعبد من غير حضور ، حتى يصل الحال بالمرء أن يتكثر بما ليس عنده ، فيصدق عليه قول الرسول ﷺ : « **المتشبع بمالم يعط كلابس ثوبي زور** » حديث صحيح . أخرجه البخاري (٧/٤٥) ، ومسلم (١٤/١١٠).

وهو الذي يلبس ثياب أهل الزهد ، والعبادة ، والورع ، ومقصوده أن يظهر للناس أنه متصف بتلك الصفة ، ويظهر من التخشع والزهد أكثر مما في قلبه ، فهذا ثوب زور ورياء ، نعوذ بالله من الرياء وأهله .

(٢) كان بعض الحكماء يقول : من سره أن تدوم له العافية ـ أي الطاعة ، والبعد عن المعصية ـ فليتق الله ، انظر : الحدائق (٣/٢٠٣) لابن الجوزي .

(٣) قيل لسهل بن عبد الله : أي شيء أشد على النفس ؟ فقال : الإخلاص ، لأنه ليس لها فيه نصيب ، المصدر السابق (٣/٢٤٦) .

(٤) قال يحيى بن أبي كثير رحمه الله : أفضل الأعمال الورع .
انظر : الحلية (٣/٦٨) .

وقد يفتح عليك مائةَ بابٍ من الطاعة ، ولا قصده بذلك إلا هلاكك ، وعطبك (١) .

٣٢ ـ فلا تترك المصراخ (٢) ، والتضرع ، والبكاء ، والاستعانة بالله تعالى ، وتستغيث إلى الله عز وجل ، فإنك فى بحرٍ عظيمٍ ، ولو كان بحر من ماءٍ لكان غايته الموت ، ولكن بحر النار ، وهو جهنم التى ليس لها قعر ، ولا منتهى .

٣٣ ـ فالله الله فى نفسك ، فلا يكون شىء أعز عليك من نفسك ، فإذا رأيت حائلاً يقطعك عن الله ، ويحول بينك وبينه ، فاعلم أنه من إبليس ، وإن كانت طاعة بلاهمة .

٣٤ ـ وأعط اللَّهَ من نفسك المجهودعلى قطع الأشغالِ التى تقطعك عن

---

(١) ولعل فى هذا الموقف ما يوضح ذلك :
قال ابن أنعم : بينما موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ جالس مع بعض أتباعه ، إذ أقبل إبليس ، فسأله موسى عليه الصلاة والسلام :ما الذى إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه ؟ قال : إذا أعجبته نفسه ، واستكثر عمله ، ونسى ذنوبه » انظر : تلبيس إبليس (ص/٣٠ ـ ٣١) .
فالملعون يزين للمرء عمله ، ويلح عليه فى الإكثار منه بتزيين الظاهر ، لأن الناس لا يكرمونك إلا بمقدار رؤيتهم لأعمالك الصالحة ، فيغفل عن إصلاح باطنه الذى هو موضع نظر الله عز وجل ، بل قد يصل إلى أن يرى الناس أنه يخشى الله وقلبه فاجر !!
ويقول ابن القيم رحمه الله : ومن مكائده : أنه يأمرك أن تلقى المساكين ، وذوى الحاجات بوجهٍ عبوسٍ ، ولاتريهم بشراً ولا طلاقة، فيطمعوا فيك ، ويتجرأ وا عليك ، وتسقط هيبتك من قلوبهم ، فيحرمك صالح أدعيتهم ، وميل قلوبهم إليك ، ومحبتهم لك ، فيأمرك بسوء الخلق ، ومنع البشر، والطلاقة مع هؤلاء ، ليغلق عنك باب الخير، ويفتح لك باب الشر .
انظر : إغاثة اللهفان (١/١٤٠) .
(٢) كذا بالأصل ، والمصرخ : المغيث ، والصريخ : المستغيث ، والتصرخ : تكلف الصراخ ، والمستصرخ : المستغيث ، وقديكون المراد :المصراخ أى الاستغاثة بالله ، والله أعلم .

الرب تبارك وتعالى ، فإنما يريد بك عدوك إبليس أن يوقعك في جهنم(١) .

الصمت ومخالفة الهوى :

٣٥ ـ واعلم أن طريق الحكمة هو الصمت (٢) ، فإذا صمت ملكت قلبك ، فيكون صمتك تفكراً ، ونظرك اعتباراً ، وكلامك ذكراً (٣) ، ولا تختر على الصمت شيئاً إلا ما يلزمك من فرائض الله عز وجل .

وهذه خصال مجربة ، جربها أهل المحاسبة لأنفسهم ، فلما قاموا بها أحكموها بإذن الله عز وجل ، ووصلوا إلى المنازل الشريفة ، وإنما هي الأشياء بقوة العزم ، ومخالفة الهوى بإذن الله (٤) .

---

(١) قال الحارث الجعفي : « إذا كنت في أمر الآخرة فامكث ، وإذا كنت في أمر الدنيا فتوخ ، وإذا هممت بخير فلا تؤخره ، وإذا أتاك الشيطان وأنت تصلي ، فقال : إنك ترائي فزدها طولاً » انظر : الحلية (١٣٢/٤) .

(٢) قال وهيب بن الورد رحمه الله : « كان يقال : الحكمة عشرة أجزاء ، فتسعة منها في الصمت ، والعاشرة عزلة الناس » حلية الأولياء (١٤٢/٨) ، (٣٦) الصمت لابن أبي الدنيا

(٣) عن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال : « كل كلام ليس بذكر الله تعالى فهو لغو، وكل سكوت ليس بفكر فهو غفلة، وكل نظر ليس بعبرة فهو لهو، فطوبى لمن كان كلامه ذكر الله تعالى ، وسكوته تفكراً ، ونظره عبرة » انظر:تنبيه الغافلين (ص/١٦٨) للسمر قندي .

(٤) وفي مخالفة الهوى كانت تلك الكلمات الطيبة :

* يقول أبو عثمان الحيري : من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً ، نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ النور : ٥٤ . انظر : الحلية (١٠ / ٢٤٤) ، الزهد للبيهقي (٣١٩) ، (٣٧٥) .

* قال إبراهيم بن أدهم : أشد الجهاد جهاد الهوى ، من منع نفسه هواها فقد استراح من الدنيا وبلاها ، وكان محفوظاً من أذاها . انظر : الزهد للبيهقي (٣٢٠) .

* وقال سهل بن عبد الله ـ وسئل عن المعرفة ـ فقال : لا ينالها أحد إلا بعد المكابدة فيتلذذ بمخالفة هواه أكثر مما يتلذذ بمتابعة هواه ، فعند ذلك يعرف . انظر ، الزهد للبيهقي (٣٢٢) .

*وقال الفضيل بن عياض : لا يكمل عبد حتى يؤثر الله على شهوته . المصدر السابق (٣٤٨) .

فمن قوى عزمه هانت عليه مخالفة الهوى ، ومن قوى عزمه يتبين له فضله فى قلبه ، ويتبين له الذى يأتيه من عون الله تعالى له .

الوصايا العشر لصلاح النفوس :

٣٦ ـ فإنها خصال مجربة ، وهى عشر خصال :

أولها : لا تحلف بالله لا صادقًا ، ولا كذاباً ، لا عامداً ، ولا ساهياً (١) ، فإنك إذا عودت ذلك نفسك ، وعودته لسانك فتح الله لك بابًا من أمورك ، تعرف منفعة زيادة دينك ، ورفعة فى درجتك عند ربك ، وعند الإخوان وكرامة عند الجيران ،حتى يأتمن بها من عرفك ، ويهابك من لم يرك .

٣٧ ـ **والخصلة الثانية** : إياك والكذب فى حق أو باطل ، أو مزاح أو غير ذلك (٢) .

---

(١) قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ **ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا** ﴾ البقرة : ٢٢٤.
قال ابن الجوزى فى تفسيره زاد المسير (٢٥٤/١) : فى معنى الآية ثلاثة أقوال : أحدها : أن معناها : لا تحلفوا بالله أن لا تبروا ، ولا تتقوا ، ولا تصلحوا بين الناس . هذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء ، وابن جبير ، وإبراهيم ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، والفراء ، وابن قتيبة ، وغيرهم .
والثانى : أن معناها : لا تحلفوا بالله كاذبين لتتقوا المخلوقين ، وتبروهم ، وتصلحوا بينهم بالكذب ، روى هذا عن ابن عباس من طريق ضعيف .
الثالث : أن معناها : لا تكثروا الحلف بالله ، وإن كنتم بارين ، مصلحين ، فإن كثرة الحلف بالله ضرب من الجرأة عليه ، قاله ابن زيد .
(٢) من شؤم الكذب :أن صاحبه لا يصدقه الناس فى أى كلام له ، ولوكان صادقاً فيه .
قال الكريزى رحمه الله : ـ

كذبت ، ومن يكذب فإن جزاءه ... إذا ما أتى بالصدق أن لا يُصدَّقا
إذا عرف الكذاب بالكذب لم يزل ... لدى الناس كذاباً وإن كان صادقا
ومن آفة الكذاب نسيان كذبه ... وتلقاه ذا فقه إذا كان حاذقا

* ومن شؤم الكذب : أن صاحبه ينفر عن صحبته الناس ، ولا يتمنون قربه ، بل يحبون بعده عنهم .
=

فإذا أحكمنتَ ذلك من نفسك ، وعودته لسانك شرح الله صدرك وزكا به عملك ، وصرت كأنك لا تعرف الكذب ، وإذا سمعته من غيرك أعبت ذلك عليه ، وغيرته ، ولك ثوابه .

٣٨ ـ والخصلة الثالثة : احذر أن تعهد أحداً شيئاً فتخلفه وعده ، وأنت تقدر عليه ، فإذا وعدت أحداً شيئاً ، فأوفى به إليه ، فلا تخلفه إلا من عذر بين (١) ، واقطع الوعد الآجل بالكلية ، فهو أقوى لأمرك ، فإنك إذا وعدت أحداً ، ثم خلفته ، فقد أوقعت نفسك فى الكذب . (٢)

فإذا أحكمت هذه الخصلة ، وداومت عليها ، فتح اللّهُ لك باباً من السخاء ، ودرجة الحياء ، وأُعطيت رفعة عند اللهِ إن شاء الله .

= قال محمد بن عبد الله البغدادى رحمه الله : ـ

إذا ما المرء أخطأه ثلاث ... فبعه ولو بكف من رماد

سلامة صدره ، والصدق منه ... وكتمان السرائر فى الفؤاد

وبالضد فالصدق سبب الخير ، ومفتاح البركة ، ومجلبة لمحبة الناس وينجى من المهالك ، ويرفع صاحبه فى الدنيا والآخرة .

(١) وهذا كان حال السلف الصالح ، وفى هذا يقول عمر بن الحارث : كانوا يفعلون ولا يقولون ، فقد صاروا يقولون ولا يفعلون ، ثم صاروا لايقولون ، ولا يفعلون ، وكنت متى شئت أجد من يعد وينجز ، فقد أعيانى مَنْ يعد ولا ينجز . انظر : عيون الأخبار (١٦٤/٣) لابن قتيبة .

(٢) وليتذكر المؤمن قبل إعطاء الوعد قول الله تعالى :

﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً** ﴾ الإسراء : ٣٤ .

* قال سعيد بن جبير رحمه الله : يسأل الله ناقض العهد عن نقضه .

* وقال ابن جريج رحمه الله : يسأل عن عهده الذى أعطاه . انظر : الدر المنثور (١٨١/٤) .

٣٩ ـ **الخصلة الرابعة** : إياك أن تلعن شيئاً من خلق الله (١) ، أو تؤذى ذرة فما فوقها ، فإن ذلك أخلاق الأبرار ، وأخلاق الصديقين ، وله عاقبة حسنة ، فى حفظ الله إياك فى الدنيا ، مع ما يدخره لك عنده من الدرجات ، ويستنقذك من مصارع المهلكات ، ويسلمك من الخلق ، ويرزقك المحبة من العباد ، وحظوة عند الله ، وعند الخلق .

٤٠ ـ **الخصلة الخامسة** : إياك أن تدعو على أحدٍ من خلق الله ، وإن ظلمك ، فلا تقطعه بسوء فعله ، ولا تكافئه بقولٍ ، ولا فعل .

فإن هذه الخصال ترفع صاحبها فى الدرجات العلى ، وينال بها منزلة شريفة فى الدنيا والآخرة ، والجاه ، والمودة فى قلوب الخلق أجمعين ، من قريبٍ أو بعيد ، وإجابة الدعوة من الله بها علينا ، وعليك بمنه وفضله .

---

(١) وقد ورد النهى الشديد فى السنة النبوية ، بقوله ﷺ : ـ « لا تلاعنوا بلعنة ، ولا بغضبه ، ولا بجهنم » حديث حسن . أخرجه أبو داود (٤٩٠٦) ، والترمذى (٢٠٤٢) ، وأحمد (١٥/٥) ، والحاكم (١٤٨/١) وصححه الترمذى ، والحاكم .

* وكان ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ لا يلعن خادماً له قط ، فلعن واحداً فأعتقه » أخرجه الخرائطى (٧٢) فى مساوئ الأخلاق .

فالأصل فى المؤمن أنه لا يكون لعاناً ، كما قال ﷺ : « ليس المؤمن بالطعان ، ولا باللعان » حديث صحيح . أخرجه الترمذى (١٩٧٨) ، والبخارى (٣١٢) فى الأدب المفرد .

ورُوى أن أبا الدرداء ـ رضى الله عنه ـ مرَّ على رجل قد أصاب ذنباً ، فكانوا يسبونه ، فقال لهم أبو الدرداء : أرأيتم لو وجدتموه فى قليب ـ البئر ـ ألم تكونوا مستخرجيه ؟ قالوا : بلى . قال : فلا تسبوا أخاكم ، واحمدوا الله الذى عافاكم .

قالوا : أفلا نبغضه ؟ قال : إنما أبغضوا عمله ، فإذا تركه فهو أخى .

انظر : شرح السنة (١٣٧/١٣) .

* وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : إذا رأيتم أخاكم قارف ذنباً ، فلا تكونوا أعواناً للشيطان عليه ، تقولون : اللهم اخزه ، اللهم العنه ، ولكن سلوا الله العافية ، فإنا أصحاب محمد ﷺ كنا لا نقول فى أحدٍ شيئاً حتى نعلم على ما يموت ، فإن ختم له بخير ، علمنا أنه قد أصاب خيراً ، وإن ختم له بشر خفنا عليه عمله . أخرجه عبد الرزاق (٢٠٢٦٦) فى مصنفه .

وأخرجه البغوى (٣٥٥٩) فى شرح السنة .

٤١ ـ **والخصلة السادسة** : إياك أن تشهد على أحدٍ من أهل القبلة بكفرٍ ، أو نفاق ، ولا تكفر أحداً بذنب (١) .

فإن ذلك أقرب إلى الرحمة ، وهى تمام السنة ، وأبعد من الدخول فى علم الله تعالى ، وأبعد من مقت الله (٢) ، وأقرب إلى رضا الله ورحمته ، وهو باب شريف كريم عند الله تعالى ، يورث العبد الرحمة للخلق .

نفعنا الله وإياك بها ، ومَنَّ علينا وعليك باعتقادها .

٤٢ ـ **والخصلة السابعة** : إياك والنظر ، والقصد إلى شىء من معاصى الله تعالى ، وكف عنها جوارحك ، فإن ذلك أسرع الأعمال ثواباً فى القلب ، وفى الجوارح ، فى عاجل الدنيا ، مع ما يدخره الله لك عنده من خير الآخرة (٣) .

نسأل الله تعالى أن يمنَّ بها علينا ، وعليك ، وأن يخرج شهواتنا من

---

(١) وتلك هى عقيدة أهل السنة والجماعة ، وهى عدم تكفير أحد من المسلمين بذنبٍ ، مالم يستحله .

(٢) وذلك يتضح فى تشديد الرسول ﷺ بقوله : « **لا يرمى رجل رجلا بالفسق ، ولا يرميه بالكفر ، إلا ارتدت عليه ، إن لم يكن صاحبه كذلك** » .

حديث صحيح . أخرجه البخارى (٦٠٤٥) ، أحمد (٥/١٨١) ، وغيرهما .

وقال ﷺ : « **من رمى مؤمناً بكفر فهو كقتله** » حديث صحيح . أخرجه البخارى (٦٠٤٧) ، ومسلم (١١٩/٢) بنحوه ، والخرائطى (٢١) فى المساوئ بلفظه .

(٣) وليس ذلك بعجيب ، فإن مضرة القلب والبدن من وراء المعاصى معلومة ، صنف من أجلها ابن القيم كتابه « **الداء والدواء** » نذكر بعضها على سبيل التذكرة ، والاختصار، منها : حرمان العلم ، والرزق ، ووحشة فى القلب ، وظلمة ، وتعسير الأمور ، وتورث الذل ، وتفسد العقل ، وتطبع على القلب ، وتطفئ الغيرة ، وتذهب الحياء ، وتخرج صاحبها من دائرة الإحسان ، وتعمى البصيرة ، وتصغر النفوس ، وتضعف فى القلب تعظيم الرب ، وتجرئ على المرء أعداءه ، بل وتنسى العبد نفسه .

فإن ابتعد العبد عن المعاصى ، واقترب وعاش فى الحسنات حصل من وراء ذلك مالا تعلمه نفس ، ولا يتخيله عقل ، والله على كل شىء قدير .

بحوله ، وقوته .

٤٣ ـ **والخصلة الثامنة** : إياك أن تجعل لأحدٍ عليك مؤنة صغيرة ولا كبيرة ، وارفع مؤنتك على الخلق أجمعين مما احتجت إليه ، أو استغنيت عنه (١) ، فإنه تمام عز العابدين ، وشرف المتقين ، وبه تقوى على الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ويكون الخلق عندك بمنزلة واحدة ، سواء فى الحق .

فإذا كنت كذلك نقلك الله إلى الغناء ، والثقة به ، إلى اليقين .

واعلم أن هذه الخصلة هى عِزُ المؤمنين ، وشرفُ المتقين ، وهى أقرب باباً إلى الإخلاص .

مَنَّ الله بها علينا ، ولا حرمنا وإياك ، فإنه قادر على ذلك .

٤٤ ـ **والخصلة التاسعة** : اقطع طمعك من الآدميين ، ولا تطمع نفسك فى شيءٍ مما فى أيديهم (٢) ، فإنه العز الأكبر ، والغناء الخالص (٣) ، والملك

---

(١) لذلك كان من وصاياه ﷺ التى أوصى بها الصحابى ثوبان رضى الله عنه قوله : « **لا تسأل الناس شيئاً** » حديث صحيح . أخرجه أحمد (٥/٢٧٥) ، وأبو داود (١٦٣٩) ، والنسائى (٥ / ١٠٠) ، وابن حبان (٥/١٦٤) .

* وكان لقمان الحكيم يقول لابنه :يابنى إذا افتقرت ، فافزع إلي ربك وحده فادعه، وتضرع إليه ، وسله من فضله، وخزائنه، فإنه لايهلكه غيره ، ولا تسل الناس فتهون عليهم ، ولا يردوا إليك شيئاً » أخرجه ابن أبى الدنيا (٨٢) فى القناعة ، وأورده القرطبى (ص/٥١) فى قمع الحرص .

(٢) أوليس الرسول ﷺ هو القائل لنا : « **من نزلت به حاجة ، وأنزلها الناس لم تسد فاقته ، فإن أنزلها بالله أوشك الله بآجل حاضر أو رزق عاجل** » حديث صحيح . أخرجه أحمد (١/٤٠٧) وأبو داود (١٦٤٥) ، والترمذى (٢٤٢٨) ، وغيرهم .

(٣) كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول على المنبر : « **أيها الناس إن الطمع فقر ، وإن اليأس غنى ، وإن الإنسان إذا يئس من الشيء استغنى عنه** » .

أخرجه ابن المبارك (٦٣١) فى الزهد ، وأحمد(ص/١٤٦) فى الزهد ، وأبونعيم (١/٥٠) فى الحلية .

* وكان الحسن بن على ـ رضى الله عنه ـ يقول : « ابن آدم إذا قنعت بما رزقك الله ، فأنت أغنى الناس » أخرجه ابن أبى الدنيا (١٣٠) فى القناعة .

العظيم ، والفخر الجليل ، والتوكل الشافى ، وهو باب من أبواب الثقة بالله تعالى ، وهو بابٌ من أبواب الزهد ، وبه يصح لك الورع ، وتكمل عبادتك ، وهو من علامات المنقطعين إلى الله عز وجل .

٤٥ ـ والخصلة العاشرة : بها تعلو درجة العابد ، وتركب مطية التواضع ، وتستكمل العز ، والرفعة عند الله تعالى ، وعند الخلق ، وتقدر على ما تريد من أمر الدنيا والآخرة بإذن الله تعالى .

ولا تصل إلى شيءٍ مما ذكرت لك حتى تكون فيك هذه الخصلة ، فإنها أصل الطاعات كلها ، وفرعها ، وكمالها ، وبها تدرك منازل الصالحين ، وهى كمال التقوى ، وهى :

أنك لا تلقى أحداً من الناس إلا رأيت له الفضل عليك ، فلعله عند الله خير منك ، وأرفع درجة ، فلا يخلو من تلقاه ، أن يكون صغيراً ، أو كبيراً ، أو عالماً ، أو جاهلاً ، أو كافراً .

فإن كان صغيراً، قلت :هذا لم يعص الله ، وأنا عصيته ، فلا شك أنه خير منى .

وإن كان كبيراً ، قلت : هذا عبد الله قبلى .

وإن كان عالماً ، قلت : أعطى هذا مالم أعط أنا ، وعلم مالم أعلم ، وهو يعمل بعلم .

وإن كان جاهلاً عندك ، قلت : هذا عصى الله بجهل ، وأنا عصيته بعلمٍ ، فلا شك أنه خير منى ، ولا أدرى بما يختم لى ، ولا له .

وإن كان كافراً ، قلت : لعله يسلم ، ويختم له بخير العمل ، ولعلى أكفر أنا ، فيختم لى بشر العمل ، وتشكر الله الذى عصمك من

كفره ، وضلالته (١) ، فتقوم لله بما يجب عليك من البغض له ، وأنت مع ذلك خائف على نفسك من الخاتمة (٢) .

٤٦ ـ فإذا كنت مع الخلق على هذه الحالات ، فيكون عندك شغل بنفسك (٣) ، والنصيحة لجميع المسلمين ، والشفقة على جميع خلق الله

---

(١) نعم ، على المرء الخوف من سوء الخاتمة ، ولكن لا يعتقد بأى حالٍ من الأحوال أن الكافر خير منه ، وهو لا يزال على كفره .

نعم ليس له لعنه على التخصيص فلعله يدخل إلى الإسلام ، ولكن ما دام لا يزال على ضلاله ، فلا يظن أبداً أنه خير من المسلم ، الموحد ، وإن كان مقصراً فى طاعة ربه .

(٢) ولقد جاء هذا المثل ، وتلك الخصلة بصورة أصح ، وأوضح من كلام بكر بن عبد الله المزنى التابعى الجليل رحمه الله ، حيث يقول :

إن عرض لك إبليس بأن لك فضلاً على أحدٍ من أهل الإسلام ، فانظر ، فإن كان أكبر منك ، فقل : قد سبقنى هذا بالإيمان ، والعمل الصالح فهو خير منى ، وإن كان أصغر منك ، فقل : قد سبقت هذا بالمعاصى و الذنوب ، واستوجبت العقوبة ، فهو خير منى ، فإنك لا ترى أحداً من أهل الإسلام إلا أكبر منك أو أصغر منك .

وإن رأيت إخوانك المسلمين من يكرمونك ، ويعظمونك ، ويصلونك ، فقل أنت : هذا فضل أخذوا به ، وإن رأيت منهم جفاء ، وانقباضاً ، فقل : هذا ذنب أحدثته.

أخرجه أبو نعيم (٢/٢٢٦) فى حلية الأولياء .

(٣) المؤمن الصادق فى إيمانه هو الذى ينشغل بعيوبه عن عيوب الناس .

* قال مالك بن دينار : أذكر الصالحين !! فأفٍّ لى ، وتُفٍّ .

صفة الصفوة (٣/٢٧٨) .

* وقال أيوب السختيانى : إذا ذكر الصالحون ، كنت بمعزلٍ منهم .

محاسبة النفس (ص/ ٤٨) لابن أبى الدنيا .

* ويقول سفيان الثورى :جلست ذات يوم أحدث ، ومعنا سعيد بن السائب الطائفى ، فجعل سعيد يبكى حتى رحمته ، فقلت : ياسعيد ما يبكيك ، وأنت تسمعنى أذكر أهل الخير وفعالهم ؟ ! قال :

ياسفيان ، وما يمنعنى من الكباء ، وإذا ذكر مناقب أهل الخير ، كنت منهم بمعزل !!

قال سفيان : حق له أن يبكى .

المصدر السابق (ص/ ٤٨) . =

تعالى ، مؤمناً كان أو كافراً ، عاقلاً أو غير عاقل ، فتريد للمؤمنين ما تريد لنفسك ، وتريد للكافر أن يدخل فى دين الإسلام ، فيدخل الجنة .

فإن كرهت إسلامه ، فقد عصيت الله تعالى حين أردت أن يبقى عبد من عبيده على الكفر به .

وإن خفت منه ضرر المؤمنين ، فلا حرمة للكافر عند مضرة المؤمن .

وكذلك جميع الحيوانات من عاقل ، وغير عاقل ، يجب الإشفاق عليها مالم يكن فيها ما يضر بالمؤمنين ، فإذا كان فيها مضرة بالمؤمنين فلا حرمة لها .

المؤمنون وحقوقهم :

٤٧ - والمؤمنون فى حقك أصناف ، فمنهم : الآباء ، والأقارب ، والمعارف ، والأجانب ، والعلماء ، والولاة ، والفقراء ، والأغنياء .

ولكل(★) واحد من هذه الأصناف حق عليك ، أوجبه الله تعالى ،

= * وكان محمد بن واسع يقول : لوكان للذنوب ريح ، ما قدرأحد أن يجلس إلىّ.
حلية الأولياء (٣٤٩/٢) .

هكذا كان سلفنا الصالح ينشغلون بعيوبهم عن الحديث فى عيوب الآخرين ، بغيبة ، ونميمة ، وكذب ، وبهتان .

وصدق زاذان المدائنى عندما قال : « رأيت أقواماً من الناس لهم عيوب ، فسكتوا عن عيوب الناس فستر الله عيوبهم ، وزالت عنهم تلك العيوب ، ورأيت أقواماً لم تكن لهم عيوب اشتغلوا بعيوب الناس ، فصارت لهم عيوب » .
عيوب النفس (ص/ ١٢) للسلمى .

وليس المراد بالانشغال بالنفس وعيوبها أن يسكت المرء عن المنكر ، أولا يأمر بالمعروف ، بل المراد هو التوقف عن تكبير عيوب الآخرين ، وتصغير عيوب النفس ، أو نسيان عيوبه ، وتذكره لعيوب غيره ، وجعله لها ديدن كلامه .

(★) بالأصل : وكل ، والسياق يقتضى ما أثبتناه .

وتنحصر حقوقهم فى أربعة أشياء ، وهى : التجارة ، والإجارة ، والهدية ، والصدقة وأما حقوقهم عليك فى التجارة فثلاثة أشياء : ترك الربا ، وأن يريد كل واحد لصاحبه مايريد لنفسه (١) ، وأن يستوى علمهما فى السلعة ، فلا يعرف أحدهما فيها الغش ، والعيب فيكتم عن صاحبه ، ولكن يستوى علمهما فيها (٢) .

وأما الإجارة فلها فرضان : أحدهما : العلم بالأجرة وقدرها ، والثانى العلم بالعمل وقدره ، والثالث : النصيحة فى العمل .

٤٨ ـ وأما الهدية ، فلها فرضان : أحدهما المكافأة مع القدرة ، والثانى : قصده التودد فى الإعطاء ، والقبول .

٤٩ ـ وأما الصدقة ، فعلى معطيها شرطان ، وعلى آخذها شرطان .

فأما معطيها ، بأن يريد بها وجهالله تعالى ، والثانى أن تكون من حلال .

وأما آخذها ، أن يكون عديماً ، لا مال له ، والثانى : أن يفسد أحد أعضائه كالمقطوع ، والأعمى ، والأعرج ، وشبه ذلك .

☆☆☆☆

(١) أى من الكسب ، والسعة فى الرزق .

(٢) تلكم هى صفات التجار الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويخافون يوماً كان شره مستطيراً.

(★) وانظر رسالة « آداب التاجر وشروط التجارة » من إصدارات دار الصحابة للتراث .

باب الشفقة (١)

٥٠ ـ قال المحاسبى رحمه الله تعالى :ـ

فهذا الباب باب الشفقة ، وهو أول ما يصحب ، وآخر ما يبقى التواضع .

فإنك إذا كنت من أصفياء الرحمن ، وأحبابه ، وكنت من أعداء إبليس فهذا باب الرحمة .

وقطعت من قبلك طريق الكبر ، وحبال العجب (٢) ، وتجنبت درجة التعزز فى نفسك ، فى الدين والدنيا ، وهذا صلاح العبادة ، وشرف العابدين الزاهدين ، فلا شيء أفضل منه ، ولا يتم لك عمل إلا بهذا الباب .

وبهذا الباب تخرج الغل من قلبك ، والكبر ، والبغى ، وكان لسانك واحداً فى الخير والشر ، ويكون الخلق عندك فى النصيحة واحداً .

(١) هذا العنوان مضاف من المحقق ، أما سائر عناوين الأبواب فهى من المصنف .

(٢) قال الفقيه السمر قندى رحمه الله : من أراد أن يكسر العجب ، فعليه بأربعة أشياء : **أولها** : أن يرى التوفيق من الله تعالى ، فإذا رأى التوفيق من الله تعالى ، فإنه يشغل بالشكر ، ولا يعجب بنفسه .

الثانى : أن ينظر إلى النعماء التى أنعم الله بها عليه ، فإذا نظر فى نعمائه ، اشتغل بالشكر : ولا يعجب بنفسه .

الثالث : أن يخاف أن لايتقبل منه ، فإذا اشتغل بخوف القبول ، لا يعجب بنفسه .

والرابع : أن ينظر فى ذنوبه التى أذنب قبل ذلك ، فإذا خاف أن ترجح سيئاته على حسناته ، فقد قل عجبه ، وكيف يعجب المرء بعمله ؟ ولا يدرى ماذا يخرج من كتابه يوم القيامة !! وإنما يتبين عجبه ، وسروره بعد قراءة الكتاب .

انظر : تنبيه الغافلين (ص/ ١٧٦) .

٥١ ـ ولا تك من الناصحين للخلق ، طالما تذكر أحداً بسوءٍ ، أو تحب أن يذكر عندك بسوء .

فهذه آفات العابدين ، وهلاك الزاهدين ، إلا من عصمه الله تعالى ، وأعانه على حفظ لسانه .

فهذه العشرة خصال ، حافظ عليهن ، وأبشر بالزيادة من الله الكريم ، نسأله جل وتعالى أن يمن علينا ، وعليك به ، فنعمل بها ، إنه جواد كريم .

٥٢ ـ قال المحاسبى رحمه الله تعالى : ـ

اعلم أن من ترك هذه العشرة خصال المذكورة ، ولم يأت بها ، فقد عطب ، وهلك هلاك الأبد ، وتعلم أن إبليس لا يترك باباً من أبواب الشر ، إلا وهو يريد أن يوقعك فيه ، ولا تعمل باباً من الخير إلا وهو يحرص فى فساده ، فهو يطالبك فى فساد الدين والدنيا ، والآخرة جميعاً .

فالحذر ، عليك بالجد فى مخالفته .

النية أساس التقوى :

٥٣ ـ واعلم رحمك الله أن أساس التقوى ، وأصل ما بنى عليه العابدون عبادتهم ، والذين صدقوا الله تعالى ، إنما هو النية (١) فى جميع ما

---

(١) وفى مثل ذلك قال السلف الصالح :

* قال إبراهيم النخعى رحمه الله : إن الرجل ليتكلم بالكلام ، وعلى كلامه المقت ، ينوى فيه الخير ، فيلقى الله له العذر فى قلوب الناس ، حتى يقولوا : ما أراد بكلامه هذا إلا الخير ، وإن الرجل ليتكلم بكلام حسنٍ ، لا ينوى فيه الخير ، فيلقيه الله فى قلوب الناس ، حتى يقولوا : ما أراد بكلامه هذا خير .

* وقال عون بن عبد الله رحمه الله : ـ كان أهل الخير يكتب بعضهم إلى بعض ثلاث كلمات : من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه ، ومن أصلح سريرته ، أصلح الله علانيته ، ومن أصلح فيما بينه وبين الله ، أصلح الله فيما بينه وبين الناس .

* وقال بعضهم : نية المؤمن خير من عمله ، لطول نيته ، وقصر عمله ، لأنه ينوى أن يعمل الخير ما بقى ، ولا يستطيع أن يعمل الخير ما بقى . =

أرادوا به ، في ترك معصية ، أو عمل بطاعة .

٥٤ ـ فعليك بصلاح نيتك ، فإن بها صلاح آخرتك ودنياك جميعاً ، فاقصد أول ما تقصد إلى نيتك ، فإنما العزم بالنية ، ولا يصل إليك شيء من معرفة الرب تعالى إلا به، فعليك بنيتك ، فإنه عمل خفي فيما بينك وبين الله ، فلا تعمل شيئاً إلا بنيتك ، يكون فيها لله رضا ، ولا تأكل ، ولا تشرب ، ولا تتكلم ، ولا تنظر ، ولا يراك الله تعمل شيئاً إلا بالنية .

٥٥ ـ واعلم رحمك الله أنك إذا كانت نيتك جيدة ، صحيحة ، كان معك الجند الذي لا ينهزم ، والقيوم الذي لا ينام ، والحارس الذي لا يغفل ، وهي رأس مالك ، وهي مال لا ينفد (١) .

= * وقال الفقيه السمر قندي رحمه الله : كم من نائم يكتب له أجر المصلين ، وكم من مصلٍ مستيقظ يكتب من النائمين ، وذلك أن الرجل إذا كان من عادته أن يقوم وقت السحر ويتوضأ ، ويصلي حتى يطلع الفجر ، فنام ليلة على تلك النية ، فغلبه النوم حتى أصبح فاستيقظ ، حزن لذلك ، واسترجع ، فإنه يكتب مصلياً ، ويبلغ ثواب القائمين بنيته ، وأما إذا كان الرجل لم يكن يقوم بالليل ، فظن أنه قد أصبح فقام ، وتوضأ ، ودخل المسجد ، فإذا هو لم يصبح ، فجعل ينتظر الصباح ، ويقول في نفسه : لو علمت أنه لم يطلع الفجر ، لم أقم من فراشي ، فهذا الذي يكتب من النائمين وهو مستيقظ .

انظر : تنبيه الغافلين (ص / ٣٧٨ ، ٣٨١) .

(١) قال وهب بن منبه : أوحى الله تعالى إلى داود : **« ياداود ، أما وعزتي ، وعظمتي ، لا يعتصم بي عبد من عبيدي دون خلقي ـ أعرف ذلك من نيته ـ فتكيده السموات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ، إلا جعلت له من بينهن مخرجاً .**

أما وعزتي ، وعظمتي ،لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني ـ أعرف ذلك من نيته ـ إلا قطعت أسباب السماء من يده ، وأسخت الأرض من تحت قدميه ،ثم لا أبالي بأي وادٍ هلك » .

* وقال الحسن البصري رحمه الله :رحم الله عبداً وقف عند همه، فإن كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخر .

انظر : إغاثة اللهفان (١/٤٥ ، ٩٨) .

فالله ، الله فى صلاح نيتك .

٥٦ ـ ولا تكون النية إلا بالمعرفة ، ولا تكون المعرفة إلا بنية ، ولا تستغنى إحداهما عن الأخرى ، فجد واجتهد فى صلاح نيتك ، فإن بها تُدرك الخلاص ، والإخلاص .

فاقصد إلى نيتك ، ونقها من جميع الآفات ، مَنَّ الله علينا ، وعليك بمعرفة النية ، وصلاحها من جميع العيوب .

وعليك بمعرفة العيوب الجارحة ، وعيوب الطاعات ، والمعاصى كلها ، فإنه بابٌ عظيمٌ ، به تصل إلى التقوى .

٥٧ ـ واعلم رحمك الله أنك لا تصل إلى طهارة قلبك ، وإلى حسن نيتك ، إلا بالتوبة النصوح (١) ، واجتناب المحارم ، وترك الشهوات كلها ، والوقوف عند الشبهات ، ولا ترى مثل خلة إلا سددتها ، ولا فساداً إلا أصلحته .

---

(١) قال الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾ التحريم : ٨ .

والتوبة النصوح هى أن يقلع العبد عن الذنب فى الحاضر ، ويندم على ما سلف منه فى الماضى ، ويعزم على ألا يفعل فى المستقبل ، ثم إن كان الحق لآدمى رده إليه بطريقه .

* قال ابن مسعود رضى الله عنه : هى التى لا عودة بعدها كما لا يعود اللبن إلى الضرع .

* وقال سعيد بن جبير : هى التوبة المقبولة ، ولا تقبل مالم يكن فيها ثلاثة شروط ، خوف ألا تقبل ، ورجاء أن تقبل ، وإدمان الطاعات .

* وقال الحسن البصرى : التوبة النصوح أن يبغض الذنب الذى أحبه ، ويستغفر منه إذا ذكره .

انظر : التوبة النصوح (ص/١٨ ـ ٢٠) للمحقق .

اتبع ولا تبتدع :

٥٨ ـ ويعينك على ذلك اتباع طريق أصحاب النبي ﷺ (١) ، وإياك والمحدثات من الأمور ، فإن كل محدثة بدعة (٢) ، وكل بدعة ضلالة (٣) ، والضلالة وأهلها في النار (٤) ، أعاذنا الله وإياكم من النار .

٥٩ ـ فتعلم أنك إذا أخذت بطريق أصحاب رسول الله ﷺ فقد أفلحت ، وأفلحت حجتك ، وتنال بغيتك ، ولا تخالفهم فى شىء من الأشياء ، فإنهم كانوا على الحق المبين ، والنور الواضح ، فاتبع سبيلهم ، ولا تخالفهم فيخالف بك .

٦٠ ـ وتعتصم بالله فى جميع حركاتك ، وأحوالك ، وعليك بالقصد فى مطعمك ، وملبسك ، والقصد فى صلاتك ، وصيامك (٥)، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : اتبعوا ، ولا تبتدعوا ، فقد كفيتم .
أخرجه الطبرانى (٨٧٧٠) فى الكبير ، والدارمى (١/ ٦٩) فى سننه .

(٢) البدعة : هى الطريقة المخترعة فى الدين تضاهي الشريعة ، يقصد بها التقرب إلى الله ، ولم يقم على صحتها دليل شرعى صحيح أصلاً أووصفاً .
انظر : الاعتصام (١/ ٣٧) للشاطبى .

(٣) قال ابن حجر فى الفتح (١٣ / ٢٥٤) : هذه الجملة قاعدة شرعية كلية ، فكل بدعة ضلالة ، فلا تكون من الشرع ، لأن الشرع كله هدى .

(٤) قال العلامة البربهارى رحمه الله : واحذر صغار المحدثات ، فإن صغار البدع تعود حتى تصير كباراً ، وكذلك كل بدعة أحدثت فى هذه الأمة ، كان أولها صغيراً ، يشبه الحق ، فاغتر بذلك من دخل فيها ، ثم لم يستطع الخروج منها ، فعظمت ، وصارت ديناً يدان به ، فخالف الصراط المستقيم ، فخرج من الإسلام ، فانظر رحمك الله كل من سمعت كلامه من أهل زمانك خاصة ، فلا تعجلن ، ولا تدخلن فى شىء منه حتى تسأل ، وتنظر : هل تكلم فيه أحد من أصحاب النبى ﷺ ، أو أحد من العلماء ؟ فإن أصبت فيه أثراً عنهم ، فتمسك به ، ولا تجاوزه لشىء ، ولا تختر شيئاً فتسقط فى النار .
انظر : طبقات الحنابلة (٢/ ١٩) لابن أبى يعلى .

(٥) وفى هذا يقول البشير النذير ﷺ : « **خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا** » حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٧) ، ومسلم (٦/ ٧٣ نووى) ويقول عليه الصلاة والسلام : « إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة ، وشىء من الدلجة » حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٥/ ٦٩) ، والبخارى (١/ ١٦) ، والنسائى (٨/ ١٢٢) .

الرفق بالنفوس وأثره :

٦١ ـ وعليك بالرفق ، فإن نفسك هي مهجتك ، فلا تنفرها ، وخذ منها لها ، وبالله تعالى فاستعن في أمورك كلها ، فإنه المعين عليها ، لأن بيده إعانة القلوب ، وأنفاس الخلق أجمعين ، يعلم السر وأخفى ، وهو فتاح القلوب لما يحبه ويرضاه ، فاستعن بالله تعالى في أمورك كلها ، ولا تبالي بمن عاداك ، إذا كان الله تعالى معك ، وكفى بالله حفيظاً ، كان الله لنا ولك ، فإنه القائد السائق إلى كل خير .

٦٢ ـ قال المحاسبي رحمه الله تعالى :ـ

فلا تكن همتك في كثرة العمل ، إلا إذا صحبت الإخلاص لله تعالى ، وأما عمل دون إخلاص ، فهو مردود على صاحبه (١) .

(١) قال أحد السلف الصالحين : من عمل سبعة دون سبعة ، لم ينتفع بما يعمل ، **أولها** : أن يعمل بالكد دون الإخلاص ، يعني يجتهد في الطاعات ، ولا تكون أعماله خالصة لوجه الله تعالى ، لم تنفعه أعماله بغير إخلاص ، ويكون ذلك اغترار منه بنفسه .

والثاني : أن يعمل بالخوف دون الحذر ، يعني يقول : إني أخاف عذاب الله ، ولا يحذر من الذنوب ، فلا ينفعه ذلك القول شيئاً .

والثالث : أن يعمل بالرجاء دون الطلب ، يعني : يقول : إني أرجو ثواب الله تعالى ، ولا يطلبه بالأعمال الصالحة ، لم تنفعه مقالته شيئاً .

والرابع : بالنية دون القصد ، يعني ينوي بقلبه أن يعمل بالطاعات ، والخيرات ، ولا يقصد بنفسه ، لم تنفعه نيته شيئاً إلا من عذر ، وإلا فله حسنة واحدة على نيته .

والخامس : بالدعاء دون الجهد ، يعني : يدعو الله تعالى أن يوفقه للخير ، ولا يجتهد ، لم ينفعه دعاؤه شيئاً ، وينبغي له أن يجتهد ليوفقه الله تعالى ، كما قال الله تعالى :

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ العنكبوت / ٦٩ .

يعني : الذين جاهدوا في طاعتنا ، وفي ديننا ، لنوفقنهم لذلك .

والسادس : بالاستغفار دون الندم ، يعني : يقول : أستغفر الله ، ولا يندم على ما كان من الذنوب ، لم ينفعه الاستغفار يعني بغير ندامة .

والسابع : بالعلانية دون السريرة ، يعني يصلح أموره في العلانية ، ولا يصلحها في السر ، لم تنفعه علانيته شيئاً .

انظر : تنبيه الغافلين (ص/٧) ، والدر المنظوم (ص/٥٩) .

الإخلاص ، والبعد عن المحرمات :

٦٣ - وإنما تكون همتك فى إخلاص العمل ، وإن قل ، وتخلصه من جميع الآفات ، لأن ما أريد به وجهه ليس بقليل (١) .

٦٤ - وخذ من الصلاة ، والصيام ، والذكر ، قصداً ، ودواماً ، وإذا فتح الله لك باباً من الخير فالزمه ، وعليك بالتأنى فى جميع أمورك كلها إلا فى فرائض الله عز وجل (٢) ، وأدرك كل فرض فى وقته .

٦٥ - وأما المحرمات ، فإن قدرت أن تتركها فى ساعةٍ فافعل مع الاستعانة بالله تعالى ، فإذا وجدت القوة فى قلبك فاحمد الله على ما منّ به عليك .

وللقوة فى القلب علامة تعرف بها ، وهى النشاط للعبادة دون تكاسل ، وتشكر الله على ما منّ به عليك من دوام القوة فى قلبك ، والحذر والشفقة يصحبانك أبداً ، والحزن والأسف على ما فاتك من طاعة الله ، نادماً على مامضى من تقصيرك فى عمرك ، وتقصيرك فيما قد سلف ومضى .

---

(١) من كلمات السلف الطيبة فى هذا الباب :

* أخلص النية فى أعمالك يكفك القليل من العمل .

** مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص .

* رب عملٍ صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية .

* إخلاص ساعة ، نجاة الأبد ، ولكن الإخلاص عزيز .

* لأن تصلى ركعتين فى خلوة تخلصهما خير لك من قيام ليلة والقلب غافل .

الإحياء (٣٦٧/٤) .

(٢) وفى ذلك يقول الرسول ﷺ : « التؤدة فى كل شيء خير ، إلا فى عمل الآخرة » حديث صحيح . أخرجه أبو داود (٤٨١٠) ، والحاكم (٦٤/١).

* قال العلامة الطيبى : معناه أن الأمور الدنيوية ، لا يعلم أنها محمودة العواقب حتى يتعجل فيها أو مذمومة حتى يتأخر عنها بخلاف الأمور الأخروية .

انظر : فيض القدير (٢٧٧/٣) للمناوى .

٦٦ ـ فإذا وجدت هذه العلامة عطفت بالمحاسبة على قلبك ، فانتبه لأمرك بالفكر ، وعليك بدوام الحذر ، وتصل إلى الحذر بحفظ اللسان مع ضبط البطن ، والعزلة . أدام الله لنا ولك تمام النعمة ، وعرفنا إياك ما ينفعنا مما يضرنا ، وفتح الله أسماع قلوبنا حتى تعقل أمر الله تعالى ، من أمر عدوه ، ونهى الله تعالى من نهى عدوه .

٦٧ ـ فإذا سارعت في ذلك ، وتخلقت به ، أوصلك الله إلى طهارة القلب ، وصفائه من ظلمة الهوى ، فإذا انجلى قلبك نظرت مادعاك الله إليه فاتبعته ، ونظرت مادعاك إليه عدو الله إبليس ، مع ما دعتك إليه نفسك فتركته ، واجتنبته .

فإذا صلح القلب صلح سائر الجسد بإذن الله ، وسائر الجسد ـ هو الجوراح .

٦٨ ـ وبالله يدرك كل خير ، وبه يترك كل شر .

شدة محاسبة النفس :

٦٩ ـ وحاسب نفسك محاسبة من يعلم أنه قادم على الله تعالى (١) ،

(١) كان توبة بن الصمة ـ رحمه الله ـ بالرقة ، وكان محاسباً لنفسه ، فحسب فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها ، فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم ، وخمسمائةيوم ، فصرخ ، وقال :ياويلتي ، ألقى المليك بأحد وعشرين ألف ذنب ، كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ، ثم خر مغشياً عليه .

أخرجه ابن أبي الدنيا (٧٦) في محاسبة النفس .

وعلى المسلم اليوم أن يحاسب نفسه ، ويسأل نفسه : أين أنا من هؤلاء الرجال ؟ وكيف حالي من حالهم ؟

هل أنا حمدت الله على نعمة الإسلام ؟

هل اتقيت الله في مكسبي ، ومطعمي ، ومشربي ، وملبسي ؟

هل تعلمت شيئاً من كتاب الله ، وعملت بشيء من سنة رسول الله ﷺ ؟

هل أخلصت لله في السر والعلانية ؟

هل عدلت في الرضى والغضب ؟

هل عفوت عمن ظلمني ؟

هل أعطيت من حرمني ؟ =

ويعلم أن الله يسأله عن جميع ما يكون منه فى السر والجهر ، ويعلم أنه لا ينجو من الله إلا بالصدق ، والاستقامة ، مع عفو الله وجوده ، وكرمه .

فاعمل ذكرك فى قتل هوى نفسك ، واحذر من الأمانى ، والتسويف ، أعاننا الله وإياك عليها ، بلا عقوبة منه لنا .

٧٠ ـ فإذا اجتهدت فى زوال هذه الظلمة ، والأخلاق الردية من قلبك ، فقد طهرت عند ربك .

٧١ ـ واعلم رحمك الله : أنك لا تصل إلى طهارة القلب ، وفيه آفة من الآفات ، لا ظاهرة ، ولا باطنة ، وتكون فيه خصلة سيئة ، أويكون فيه عيب ، أو خلق ردىء .

فإذا علمت ذلك من قلبك فعليك بالتثبت ، فإنه باب من أبواب الطهارة ، فالعبد إذا كان هكذا ، لا يأمن قلبه ، ولا تسكن روعته ، حتى يخلف جسر جهنم (١) ، فهو أبداً مكروبًا ، مهمومًا ، مغمومًا ، محزونًا ، انكسر

= هل وفيت بالعهد ، وصدقت فى الوعد ؟

هل حفظت اليوم سمعى ، وبصرى ، وبقية جوارحى من الذنوب والآثام ؟

هل تذكرت الموت والبلى ؟ واليوم الآخر وشدائده ؟

هل استغفرت اليوم من ذنوبى ؟

هل دعوت الله أن يثبت قلبى على دينه ؟

إنها أسئلة تحتاج إلى أجوبة ، ومن هنا كانت محاسبة النفس واجبة ، وعلى الفور متحتمة .

(١) رأى بعض السلف رجلاً يضحك ، فقال له : ما أضحكك ؟ ليس تقرّ عينك أبداً حتى تخلف جهنم وراءك .

وقال أحمد بن أبى الحوارى : حدثنا يونس الحذاء عن أبى حمزة البيسانى عن معاذ بن جبل يرفعه قال : « إن المؤمن لا تسكن روعته ، ولا يأمن اضطرابه ، حتى يخلف جسر جهنم خلف ظهره » أخرجه ابن أبى حاتم ، وقال : أبو حمزة مجهول ، ويونس الحذاء ، وأبو حمزة عن معاذ مرسل .

وعليه فلا يصح الحديث مرفوعاً ، انظر : التخويف بالنار (ص/ ٢٤٦) لابن رجب .

الحزن فى قلبه ، فليس له راحة ، ولا فرح دون المعاينة .

كيف تصل إلى حلاوة العبادة ؟

٧٢ ـ قال الحارث بن أسد المحاسبى رحمه الله : ـ

واعلم أنك لا تصل إلى طهارة القلب وصفائه ، إلا بالتحول عن جميع ما يكره الله إلى جميع ما يحبه ، وتخرج من قلبك كل ما تحبه من الدنيا ، وتخرج من قلبك هموم الدنيا .

فإنك لا تصل إلى حلاوة العبادة ، وفى قلبك شىء من الدنيا (١) ، فإذا خرج من قلبك شىء من أمور الدنيا دخل مكانه علم من علوم الآخرة ، فلا تزال كذلك فى البحث فى عيوب نفسك ، متى ما ظهر منك خلق سيئ ، نفاه خلق حسن ، حتى تورث بذلك الطهارة ، والالتجاء إلى الله عز وجل .

الزهد فى الدنيا والطريق إليه :

٧٣ ـ قال المحاسبى رحمه الله : ـ

اعلم أن سبب الزهد فى الدنيا (٢) الصمت إلا عن ذكر الله تعالى ، مع

---

(١) يقول الفضيل بن عياض رحمه الله : « بقدر ما تحزن للدنيا فكذلك يخرج همّ الآخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة ، فكذلك يخرج هم الدنيا من قلبك » أخرجه ابن أبى الدنيا (١٢٢) فى ذم الدنيا بتحقيقى .

* وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : « إذا كانت الآخرة فى القلب ، جاءت الدنيا تزاحمها ، وإذا كانت الدنيا فى القلب ، لم تزحمها الآخرة ، لأن الآخرة كريمة ، والدنيا لئيمة » أخرجه أبو نعيم (٩/ ٢٦٠) فى الحلية .

* وقال وهب بن منبه رحمه الله : مثل الدنيا والآخرة كمثل رجل له ضرتان ، إن أرضى إحداهما أسخط الأخرى » أخرجه ابن المبارك (٥٩٤) فى الزهد ، وأبو نعيم (٤/ ٥١) فى الحلية .

* ويقول ابن المبارك رحمه الله : « حب الدنيا فى القلب ، والذنوب قد احتوشته ، فمتى يصل الخير إليه ؟ !!

أخرجه أبو نعيم (١٦٧/٨) فى الحلية .

(٢) الزهد المشروع : هو ترك كل شىءٍ لا ينفع فى الدار الآخرة ، وثقة القلب بما عند الله تعالى .

دوام الفكر (١) ، ويعرف العبد نفسه بكثرة ذمه إياها (٢) ، ويعرف نعم الله تعالى بكثرة ذكرها ، وعلى قدر فكرتك فى شدة عقاب الله تعالى ، يعظم خوفك ، وعلى قدر ذم العبد لنفسه فى تقصير الشكر يستوجب الزيادة من ربه تعالى .

٧٤ ـ واعلم رحمك الله أن لعدوك إبليس مكايد (٣) ، ومخادع ، يكيد

(١) يقول عبد الرحمن بن زيد رحمه الله :ما رأس هذا الدين وصلاحه إلا التفكر ، تتفكر، فتنظر أنه أخذ منك قليلاً من العمل ، ورضى به لنفسه ، وهو الرب تبارك وتعالى » أخرجه أبو الشيخ (١٤) فى العظمة .

* ويقول ابن منبه : المؤمن مفكر ، مذكر ، مزدجر ، تفكر فعلته السكينة فسكن ، فتواضع قنع فلم يهتم ، ر فض الشهوات فصار حراً ، ألقى الحسد فصارت له المحبة ، زهد فى كل فانٍ فاستكمل العقل ، فقلبه متعلق بهمه وهمه موكل بمعاده ، لا يفرح إذا فرح أهل الدنيا لفرحهم ، بل هو دهره محزون ، وفرحه إذا نامت العيون ، يتلو كتاب الله تعالى يردده على قلبه ، فمرة يفزع قلبه ، ومرة تهمل عيناه ، يقطع عنه الليل بالتلاوة ، ويقطع عنه النهار بالخلوة مفكراً فى ذنوبه ، مستصغراً لأعماله »

أخرجه أبو نعيم (٤/ ٦٩) فى الحلية .

(٢) لقد كان السلف الصالح على ما هم عليه من عمل وعلم ، وزهدٍ وورع ، كانوا يذمون أنفسهم ، ويكثرون من ذلك .

* كان يونس بن عبيد يقول : إنى لأعد مائة خصلة من خصال الخير ، ما أعلم أن فى نفسى واحدة منها . انظر : محاسبة النفس (ص/٥١) لابن أبى الدنيا .

*وبلغ داود الطائى ـ رحمه الله ـ أنه ذكر عند بعض الأمراء ، فأثنى عليه ، فقال : إنما نتبلغ بستره بين خلقه ، ولو يعلم الناس بعض ما نحن ماذل لنا لسان أن نذكر بخير أبداً . انظر : حلية الأولياء (٧/٣٥٩) .

* وكان مطرف بن عبد الله يقول ، وهو بعرفة : اللهم لا ترد الجميع من أجلى . انظر محاسبة النفس (ص/ ٤٧) ،صفة الصفوة (٣/٢٢٣) . وكان ذلك الذم حتى اللحظات الأخيرة فى حياتهم .

فهذا محمد بن واسع التابعى ، الزاهد ، الثقة ، العابد ،كان يقول ، وهو فى الموت :يا إخوتاه أين يذهب بى ؟ ، والله الذى لا إله إلا هو إلى النار ، أو يعفو عنى . الحلية (٢/٣٤٨) .

(٣) من مكائد الشيطان : فتنة النساء ، قال الحسن بن صالح : « **قيل إن الشيطان قال للمرأة: أنت نصف جندى ، وأنت سهمى الذى أرمى به ، فلا أخطئ ، وأنت موضع سرى ، وأنت رسولى فى حاجتى** »

أخرجه ابن الجوزى (ص/ ٣٠١) فى تلبيس إبليس . =

بها العبيد ، ويخدعهم بها .

فأول مكايده أن يكون العبد مشتغلاً بأمر الله تعالى ، مقبلاً على طاعته ، فيدعوه الشيطان إلى كسب الحلال (١) بزعمه ، ويقول له :

لابأس عليك فى الكسب من الحلال ، تتصدق به ، وتجاهد ، وتحج ، وتغزو ، وتصل رحمك ، فإن ظفر بك من هذا الباب ، فقد أوحى لك ، فاتهمه فى ذلك ، واستعن بالله عز وجل عليه .

الناس وأقسامهم فى الأعمال :

٧٥ ـ قال الحارث بن أسد رحمه الله :ـ

اعلم رحمك الله أن الناس فى الأعمال على ثلاثة أقسام :ـ

فرجل سوّفته نفسه عن العمل ، مع معرفته بالفضل حتى قدم على الله بغير عمل ، فهذا رجل محبوس ، أو يعفو الله عنه .

والثانى : عرف الفضل فصار يقلبه يتمنى منازل أهل الفضل ، وزعم أنه لا حق لهم بحبه لهم ، فهذا مخدوع .

والثالث : رجل عرف الفضل ، فعمل به ، وأخذ فى إعداد الرحيل إلى الله تعالى ، فأخذ من نفسه لنفسه ، فهذا يفرح إذا قدم على الله تعالى .

٧٦ ـ فانظر يا أخى من أى الثلاثة أنت ؟

= * ومن مكائد الشيطان : شدة الغضب ، قال وهب بن منبه : قال راهب للشيطان قد بداله : أى أخلاق بنى آدم أعون لك عليهم ؟

قال : الحدة ، إن العبد إذا كان حديداً ـ شديد الغضب ـ قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة مكائد الشيطان (ص/٥٩) لابن أبى الدنيا .

(١) المقصود تنمية التجارة ، وزيادة الربح ، والمراد من توسع المرء فى هذا أن ينشغل عن طاعة الله ، ويقصر فيها ، وهذا من مكائد إبليس ، لكى يزداد المرء تعلقاً بالدنيا ، ويقل ارتباطه ، وانشغاله بالآخرة ، والله أعلم .

واعلم أنك لا يتخلص لك عمل ، ولا يصفو لك إلا بتصفية الغذاء ، مع نفي الآفات عن جوارحك وقلبك .

٧٧ - ومما يعينك على قيام الليل : خفة الطعام ، مع قلة شرب الماء .

٧٨ - ويعينك أيضاً على ترك الشهوات ، وزوالها من قلبك التفكر في وعيد الله عز وجل ، وفيما أعد من عقابه لأهل معصيته(١) .

٧٩ - ومما يعينك على الصمت : العزلة عن الخوض فيما خاض الناس فيه .

٨٠ - ويعينك على التفكر : الخلوة .

(١) كان السلف الصالح يتفكرون في شدة عقاب الله ، ويريدون من هذا التفكر الاستعانة على البعد عن المعاصي ، والتسابق في الخيرات .

* يقول أبو سليمان الداراني : خرج مالك بن دينار - رحمه الله - بالليل إلى قاعة الدار ، وترك أصحابه في البيت ، وأقام إلى الفجر ، قائماً - أي يصلي - في وسط الدار ، فقال لهم : إني كنت في وسط الدار ، فخطر ببالي أهل النار ، يعرضون عليَّ بسلاسلهم ، وأغلالهم حتى الصباح .

أخرجه أبو الشيخ (٥٣) في العظمة .

* وقال سرار أبو عبد الله : عاتبت عطاء السليمي في كثرة بكائه ، فقال لي : ياسرار ، كيف تعاتبني في شيءٍ ليس هولي ؟! إني إذا ذكرت أهل النار ، وما ينزل بهم من عذاب الله عز وجل وعقابه ، تمثلت لي نفسي بهم ، فكيف لنفسٍ تغل يداها إلى عنقها ، وتسحب إلى النار ، أن لا تبكي ؟!! وكيف لنفس تعذب أن لا تبكي ؟!!

انظر : التخويف بالنار (ص/٤٠) .

* وروى عن شداد بن أوس - رضي الله عنه - أنه كان إذا أوى إلى فراشه ، كأنه حبة على مقلى ، فيقول : اللهم إن ذكر جهنم لا يدعني أنام ، فيقوم إلى مصلاه . انظر :حلية الأولياء (٢٦٤/١) .

* وكان طاوس - رحمه الله - يفترش فراشه ، ثم يضطجع ، فيتقلى كما تتقلى الحبة على المقلى ، ثم يثب ، ويستقبل القبلة حتى الصباح ، ويقول : طير ذكر جهنم نوم العابدين . انظر : الحدائق (١٧٠/٢) لابن الجوزي .

٨١ ـ وإذا أردت أن تكون حليماً ذكرت الله تعالى ، وإذا أردت أن تكون فقيهاً أخذت بما تعلم ، وإذا أردت أن تكون زاهداً ، أخذت باختيار الله لك ، ولم تدخر شيئاً لغدٍ .

٨٢ ـ وكن محباً في إخمال ذكرك (١) ، لأنك إذا اخترت إخمال الذكر ، فقد طرحت الكفر من قلبك .

٨٣ ـ وإذا أردت أن تكون عالماً ، فاعرض نفسك على القرآن ، فالقرآن ينقسم على أربعة أقسام :-

قسم يأمرك ، وقسم ينهاك ، وقسم يخوفك من النار ، وقسم يشوقك إلى الجنة.

فإن عدلت عن القرآن عدلت عن الشفاء ، وإن لزمت القرآن هبطت في رياض الجنة .

---

(١) من الخمول : وهو البعد عن السمعة ، وحب الظهور ، والرياء ، بل التخفى ، وعدم إفشاء ما يقوم به المرء من طاعات .

وفى الحديث النبوى : « إن الله يحب العبد ، التقى ، الغنى ، الخفى » .

حديث صحيح . أخرجه مسلم (٢٢٧٧/٤) ، وأحمد (١٦٨/١) .

* ويقول ابن المبارك رحمه الله : كن محباً للخمول كراهية الشهرة ، ولا تظهر من نفسك أنك تحب الخمول ، فترفع نفسك ، فإن دعواك الزهد من نفسك ، هو خروجك من الزهد لأنك تجر إلى نفسك الثناء والمدحة .

انظر : الحدائق (٢٧٠/٣) .

* وقال بشر الحافى رحمه الله : ما أبقى الله من أحب الشهرة ، ولا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس ، ولا أعلم رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دينه ، وافتضح ، غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه ، وإخفاء مكانه عنهم .

انظر : حلية الأولياء (٣٤٣/٨) .

* وعن الحسن قال : إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيء عبرته فيردها ، فإذا خشى أن تسبقه قام .

انظر : الزهد لأحمد (ص/ ٣٢١) .

٨٤ ـ قال المحاسبى رحمه الله تعالى :ـ

واعلم أن الناس فى الخوف على ثلاثة أقسام : ـ

الأول : رجل خاف ألا تقبل له توبة ، فهذا عمل للتوبة والانتقال .

والثاني : رجل خاف أن ترد عليه حسناته ، فهذا مستقبل للطاعة .

والثالث : رجل لزم قلبه خالص النية ، وعظمة الله تعالى ، فهذا العبد إنما يرى نفسه أبداً فى جهنم .

٨٥ ـ فهؤلاء خافوا من الطاعات (١) أن تكون أشد عليهم من المعاصى ، فإذا كان هذا خوفهم من الطاعات ، فكيف خوفهم من المعاصى ، والعقاب ؟ !

فانظر رحمك الله من أى الخائفين أنت ؟

٨٦ ـ والناس فى الصدقات على قسمين : ـ

فمنهم من يتصدق على المساكين بعد أخذ القوت .

والثاني : يتصدق على المساكين وهو محتاج ، فهذا الذى

---

(١) وفى هذا يقول الفقيه السمرقندى : ـ من عمل الحسنة يحتاج إلى خوف أربعة أشياء ، فما ظنك بمن يعمل السيئة ؟!

أولها : خوف القبول ، لأن الله تعالى قال : ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ المائدة : ٢٧ .

والثاني : خوف الرياء ، لأن الله تعالى قال : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** ﴾ البينة : ٥ .

والثالث : خوف التسليم والحفظ ، لأن الله تعالى قال : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ فاشترط المجيء بها إلى دار الآخرة .

والرابع : خوف الخذلان فى الطاعة ، لأنه لا يدرى أنه هل يوفق لها أم لا ؟ لقول الله تعالى : ﴿ **وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ هود : ٨٨ .

قد سلا (١) عن الدنيا ، ونبذها وراء ظهرها ، ولم يعمل عليها ، ولا اشتغل بها (٢).

٨٧ ـ والناس في ذكر على وجهين : ـ

فمنهم من يذكر الله تعالى بلسانه ، غافلاً بقلبه ، فهذا المسكين لا يجد حلاوة لذكره ، ولا لذة .

ومنهم من يذكر الله بلسانه ، وبقلبه ، فهذا الذى ضلت مكايد إبليس فيه .

٨٨ ـ والناس في الشكر لله تعالى على وجهين : ـ .

(١) سلا : ابتعد ، ونأى .

(٢) ولقد اتصف السلف الصالح من الأنصار بهذه الصفة الكريمة ، فمدحهم الله عز وجل في كتابه بقوله : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ الحشر : ٩ .

فقد كانوا يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ، ويبدءون الناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك .

ومن أروع مظاهر هذا الإيثار :

* أن بعث ابن الزبير إلى عائشة ـ رضى الله عنها ـ بمال في غرارتين ، يكون مائة ألف ، فدعت بطبق ، فجعلت تقسم على الناس ، فلما أمست ، قالت لخادمتها : هاتي ياجارية فطوري . فقالت أم ذرة : يا أم المؤمنين ، أما استطعت أن تشترى لنا لحماً بدرهم ؟ قالت : لاتعنفيني ، لو أذكرتيني لفعلت . انظر : طبقات ابن سعد (٨/٦٧) ، الحلية (٢/٤٧) .

* وقال ابن سابط : إن ابن حذيفة العدوى قال : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمي ، ومعي شنة من ماءٍ وإناءٍ ، فقلت : إن كان به رمق سقيته من الماء ، ومسحت به وجهه ، فإذا به ينشغ ـ في الاحتضار ـ فقلت : أسقيك ، فأشار إليَّ برأسه : أن نعم ، فإذا رجل يقول : آه ، فأشار ابن عمي أن انطلق به إليه ، فإذا هو هشام بن العاص أخوعمرو ، فأتيته فقلت : أسقيك ، فسمع آخر يقول :آهٍ ، فأشار هشام أن انطلق به إليه ، فجئته فإذا هو قد مات ، ثم رجعت إلى هشام ، فإذا هو قد مات ، ثم أتيت ابن عمى ، فإذا هو قد مات ، فتدافعوه حتى ما توا ، ولم يذوقوه !!!

انظر : الحدائق (٢/١١٩) .

رجل يشكر الله ، يطلب من الله الزيادة .

والثاني : يشكر الله ، وهو(*) ذهله خوف الله ، وشغله عن مطلب الزيادة ما هو فيه من الخوف من الله تعالى .

٨٩ ـ والناس في أداء الفرائض على ثلاثة أقسام : ـ

رجلٍ دخل الصلاة فحضرته هموم الدنيا ، فصار قلبه ينصرف في الدنيا يميناً ، وشمالاً ، فهذا المبعد عن كرامة الله ، المجانب لها .

والثاني : رجل دخل الفريضة ، وهو خائف ، هل تسلم له فريضته ، أم لا ؟ فهذا له منها مالم يغفل .

والثالث : رجل قدم المحاسبة ، مع الخوف ، والشفقة قبل الدخول في الفريضة ، فقلبه متعلق ، مخافة الله تعالى ، عالم بأنه قائم بين يدى الله تعالى ، فهذا يرى أنه وجبت له ثلاث خصال ، يتناثر الدر على رأسه من عنان السماء ، والملائكة تحفه من قرنه إلى قدميه ، ومناد ينادى : لو يعلم المناجى ، ما انفلت من صلاته !!.

٩٠ ـ والناس في وزن الأعمال على وجهين : ـ

فرجل وزن نفسه ، وبحث عن صفات عمله ، ونظر فيما هو مقيم عليه ، فلما وقف الحجة على نفسه تركها وراء ظهره ، وتغافل عن زلله ، وسيب نفسه في معاصى ربه .

فهذا الذى صار فى حبال إبليس .

والثاني : رجل وزن نفسه وعمله ، فجعل العقل (١) حجة فيما بينه وبين الله ، فما سكن العقل إليه نفاه ، وما نفاه العقل تركه .

فهذا الذى عرف مساوئ نفسه ، وقبائح عمله ، بمحاسبة نفسه ، ومخالفة ، فلم يزل يتحول ، وينقلب من درجةٍ إلى درجة ، حتى صار من

(*) كذا بالأصل ولعلها صفحت عن : وقد .

(١) نظر العقل هنا فيما لم ينص عليه الشرع بالتأكيد ، فالشرع كما يعلم يقدم على العقل ، كما يقال : يقدم النقل على العقل .

فهو فى الدنيا أشد الناس كرباً ، وغماً ، حتى يأتيه الموت ، وهوخائف .

٩١ ـ والناس فى أعمال الطاعات على قسمين : ـ

فرجل نظر بعين قلبه إلى الطاعات ، وفضلها ، وما أعد الله لأهلها من النعيم الدائم ، فكره أن يشرب مرارتها ، فهو يرى الدرجات ، والفضل ، ولكن قهره ، ورده عنها هواه (١) ، فهو المطروح بين الدارين ، فإنه يرى الفضل ، ويكره التقدم .

فهذا ليس له فى الآخرة من نصيب إلا أن يتفضل الله تعالى عليه بجوده وكرمه

والثاني : حاسب نفسه حتى عرف الفضل ، فحمل نفسه على غاية الأمر ، فقطع حبال الدنيا عن قلبه ، وصير الهموم هماً واحداً .

٩٢ ـ والناس فى قيام الليل على ثلاثة أقسام : ـ غانم ، وسالم ، وخاسر .

فأما الغانم : فهو الذى انتظر غفلة الناس حتى ناموا ، ثم قام إلى عبادة ربه ، فهو الغانم .

وأما الخاسر : فهو الذى انتظر غفلة الناس أيضاً حتى ناموا ، ثم قام يجنى على نفسه المعاصى ، والذنوب ، فذلك هو الخاسر النادم .

والثالث : رجل سليم القلب للمسلمين ، نام لا ينوى ظلم أحد ، فهذا لا له ، ولا عليه .

٩٣ ـ والناس على هذه القسمة فى النهار : فمنهم من يكون نهاره جميعه يحتطب الذنوب على نفسه ، فهو الخاسر .

---

(١) الخير كل الخير فى مخالفة الهوى ، والذل ، والهوان فى اتباع الهوى .
قال أعرابى : إذا أشكل عليك أمران ، لاتدرى أيهما أرشد ، فخالف أقربهما من هواك ، فإن أكثر ما يكون الخطأ فى متابعة الهوى .
ويقول الشاعر : نون الهوان من الهوى مسروقة ... وأسير كل هوى أسير هوان .
انظر : الحدائق (٣/١٩٠) لابن الجوزى .

ورجل يطيع الله فى جميع نهاره ، فهو الغانم

ورجل فى منزله صامت إلا عن ذكر الله تعالى ، فهو السالم .

٩٤ ـ قال المحاسبى رحمه الله : ـ

واعلم أنه لم يعمل العاملون شيئاً أفضل من اجتناب المحارم (١) .

٩٥ ـ فترك آفة واحدة من الآفات أفضل من كل عبادة خالصة ، مع وجود آفة تكون عليها مقيماً ، ومعرفة آفة واحدة أوزن من عبادة كثيرة مع الجهل بتلك الآفة .

فاستعن بالله ، ولاحول ،لا قوة إلا بالله .

ألزم خوف الله قلبك :

٩٦ ـ ولا يفارق قلبك الخوف من الله عز وجل فى جميع أحوالك (٢) ،

(١) قال أبو شجاع الكرمانى رحمه الله : من عمر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وكف نفسه عن الشهوات ، وغض بصره عن المحارم ، واعتاد أكل الحلال ، لم تخطئ له فراسة .

فكلما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نوز بصيرته وقلبه ، فرأى به مالم يره من أطلق بصره ، ولم يغضه عن محارم الله تعالى .

انظر : إغاثة اللهفان (٦١/١) .

(٢) وهكذا كان حال سلفنا الصالح : ـ

* قال مالك بن دينار رحمه الله : لو استطعت أن لا أنام لم أنم ، مخافة أن ينزل العذاب، وأنا نائم ، ولو وجدت أعواناً لفرقتهم يقولون فى منار الدنيا كلها : يا أيها الناس ، النار ، النار .

حلية الأولياء (١٣٣/٣) .

* وقال أحمد بن حنبل رحمه الله : الخوف يمنعنى من أكل الطعام والشراب فما اشتهيه . المناقب لأحمد (ص/٣٥٥) لابن الجوزى .

* وكان سعيد بن جبير رحمه الله يقول : لو فارق ذكر الموت قلبى لخشيت أن يفسد على قلبى . الزهد لأحمد (ص/ ٤٤٤) .

فإذا كنت كثير الاجتهاد ، فكن كثير الخوف منه سبحانه (١) .

من تلبيس إبليس :

٩٧ ـ واعلم رحمك الله : أن ما وقع في قلب العبد من عمل الطاعة ، ليس للعبد به علم بما مضى ، أو بما بقى من علم الله عز وجل .

٩٨ ـ فمن زعم أنه رأى شيئاً من أحوال القيامة ، أو شيئاً من أمر الرب عز وجل ، أو العرش ، أو الكرسي ، أو رأى الله عز وجل فقد كذب ، وذهبت به المذاهب ، فيخشى عليه أن يعظم هذا في قلبه ، فيصير صاحب بدعة ، يدعو الناس إليها (٢) .

---

(١) وذلك حتى لا يصاب المرء بالعجب ، والزهو ، والغرور بعمله .

* قال الحسن البصري رحمه الله : صحبت أقواماً ـ يعني الصحابة ـ كانوا بحسناتهم أن ترد عليهم أخوف من سيئاتكم أن تعذبوا عليهم . الزهد لأحمد (ص/ ٣١٩) .

* كان عامر بن عبد الله القيسي ـ رحمه الله ـ يصلي ، ويطيل القيام ، ويقول لنفسه : يا مأوى كل سوء .

الحلية (٢/٨٩) ، صفة الصفوة (٣/٢٠٢) .

* وقيل لمسروق رحمه الله : لو أنك قصرت عن بعض ما تصنع أي من العبادة ؟ قال : والله لو أتاني آتٍ من ربي أن الله لا يعذبني ، لاجتهدت في العبادة . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : حتى تعذرني نفسي إن دخلت جهنم ، لا ألو مها .

أما بلغك في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **ولا أقسم بالنفس اللوامة** ﴾ القيامة : ٢ . إنما لاموا أنفسهم حتى صاروا إلى جهنم ، واعتنقتهم الزبانية ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، وانقطعت عنهم الأماني ، ورفعت عنهم الرحمة ، وأقبل كل امرئ يلوم نفسه .صفة الصفوة (٣/٢٥)

(٢) وهذه هي دعاوى أصحاب الأحوال الشيطانية ، إذ إن أصحاب الأحوال الرحمانية ، لا يدعون شيئاً من ذلك أصلاً ، فرحم الله المصنف الذي نبه إلى مثل تلك الثغرات التي ينفذ منها أهل الدعاوى الباطلة .

ورحم الله وهيب بن الورد المكي ، الذي قيل له : إنهم يرون له رؤيا أنه من أهل الجنة ، فلما أخبر بها اشتد بكاؤه ، وقال : قد خشيت أن يكون هذا من الشيطان .

الحلية (٨/١٤١) ، الحدائق (٣ / ٣٥٠) . فتأمل هذا جيداً .

٩٩ ـ ومن زعم أنه يعرج به إلى السماء ، أو يكلم الرب تعالى ، أو يذهب إلى مكة فى ليلة ، أو يدعى شيئاً من النبوة ، فهو كذاب ، ضال ، زنديق ، مضل .

فاتق هذا الباب ، فإن صاحب هذا الطريق إما أن يكون صديقاً (١) ، أو يكون زنديقاً .

وكذلك من زعم أنه يرى الملائكة ، أو الحور العين فهو كذلك .

١٠٠ ـ فاحذر هذا الباب رحمك الله ، واحذر أهله ، فإن الأمر السرير الواضح ما كان عليه النبى ﷺ ، وأصحابه ، والتابعون ، ومن تبعهم .

---

(١) كذا قال ، وهذا يتعارض مع أول كلامه ، ومع الذى يلى تلك العبارة .
فإن لم يكن ذلك مما أدخل على المصنف ، فهذا من أوهامه ، التى لا يتبع عليها .
إذ كيف يكون صديقاً من يدعى أنه يعرج به إلى السماء أو يكلم الله ؟ !
وكيف يكون صديقاً من يدعى شيئاً من النبوة ؟
أما إن حمل المعنى على كونه فى عداد الصديقين ، لكونه بشر بالحور العين ، أو رأى تأييد الملائكة له فى شيء ما ، فهذا يحتمل ، أو رأى شيئاً من ذلك مناماً ، والله أعلم .
وممن ينطبق عليه الزندقة خير انطباق : الحارث الدمشقى .
خرج الحارث الدمشقى بالشام زمن عبد الملك بن مروان ، وادعى النبوة ، وكانت الشياطين يخرجون رجليه من القيد ، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه ، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده ، وكان يرى الناس رجالاً ، وركباناً على جيل فى الهواء ، ويقول : هى الملائكة ، وإنما كانوا جناً ، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه ، طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه ، فقال له عبد الملك : إنك لم تسم الله ، فسمى الله فطعنه فقتله .
ومن هذا الباب أيضاً : الأسود العنسى ، الذى ادعى النبوة ، كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة .
انظر : الفتاوى (١١/٢٨٤ تصوف) لابن تيمية .

١٠١ ـ ولا تدخل فى شيءٍ مما أحدث الناس فى العبادة (١) ، وغيرها من المحدثات ، فإن كل محدثة بدعة ، فاتق الله ، واحذر المضلين (٢) .

وعليك بما كان عليه رسول الله ﷺ ، وأصحابه .

فتنة النساء وشدتها :

١٠٢ ـ واحذر النساء جهدك (٣) ، وكذلك الصبيان ، والأحداث منهم ، لا تقربهم ، وباعدهم من نفسك ، وإياك وإياهم .

(١) وكل عبادة مبتدعة مردودة على صاحبها بنص حديث النبى ﷺ : « من أحدث فى أمرنا ماليس منه فهورد » **حديث صحيح** . أخرجه أحمد (٦/٢٤٠) ، والبخارى (٢٦٩٧) ، ومسلم (٣/ ١٣٤٣) .

(٢) أى المبتدعة الذين يضلون الخلق عن الحق .

* قال الفضيل بن عياض : من أحب صاحب بدعة ، أحبط الله عمله ، وأخرج نور الإسلام من قلبه ، وإذا رأيت مبتدعاً فى طريق فخذ فى طريقٍ آخر ، ولا يرتفع لصاحب بدعة إلى الله عز وجل عمل ، ومن أعان صاحب بدعة ، فقد أعان على هدم الإسلام ، ومن جلس إلى صاحب بدعة فاحذروه .

وإذا علم الله عز وجل من رجلٍ أنه مبغض لصاحب بدعة ، رجوت أن يغفر الله له ، وإن قل عمله ، وصاحب السنة وإن قل عمله فإنى أرجو له .

حلية الأولياء (٨/١٠٣ ـ ١٠٤) ، الحدائق (١/٥٤٦) .

(٣) أوليس الرسول ﷺ علمنا : « **ما تركت بعدى فى الناس فتنة أضر على الرجال من النساء** » حديث صحيح . أخرجه أحمد (٥/٢١٠) ، والبخارى (٥٠٩٦) ، ومسلم (٤/٢٠٩٨) .

وقال لنا أيضاً : « **إن الدنيا حلوة وخضرة ، وإن الله عز وجل مستخلفكم فيها لينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء** » حديث صحيح . أخرجه مسلم (٤/٢٠٩٨) .

* وكان معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ يقول : ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم ، وستبتلون بفتنة السراء ، وأخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء ، إذا تسورن الذهب والفضة ، فأتعبن الغنى ، وكلفن الفقير ما لا يجد .

الحلية (١/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧) ، الحدائق (٣/ ٣٦٠) .

* وقال سعيد بن جبير: لئن أؤتمن على بيت من الدر، أحب إلىّ من أن أؤتمن على امرأة حسناء . حلية الأولياء (٢/٢٧٦) .

نصائح ذهبية :

١٠٣ ـ واحفظ سرك (١) ، ولسانك (٢) ، واحترس من الخلق أجمعين ، فإنما هذه الأيام ، أيام الهروب .

فإن ذهبت تطلب الفضل يخشى عليك أن تضيع الفرض مع أهل زمانك ، فعليك بالهروب من الناس (٣) ، والبكاء على نفسك فيما سلف من عمرك (٤) ، ولا تكتم النصيحة لأهل

---

(١) وفى المأثور عن السلف الصالح فى ذلك :

* قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من كتم سره كان الخيار بيده ، ومن عرض نفسه للتهمة ، فلا يلومن إلا نفسه .

* وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه : ماوضعت سرى عند أحد فلمته على إفشائه ، وكيف ألو مه ، وقد ضقت به ذرعاً؟!!

* وكان يقال : احفظوا أسراركم كما تحفظون أبصاركم .

انظر : بهجة المجالس (١/٤٦٠) لابن عبد البر ، والحدائق (٣/١١١) .

(٢) روى عن الربيع بن خيثم رحمه الله : أنه كان إذا أصبح وضع قرطاساً وقلماً ، ولا يتكلم بشيء إلا كتبه وحفظه ، ثم يحاسب نفسه عند المساء .

* قال السمرقندى : هكذا كان عمل الزهاد ، أنهم كانوا لايتكلمون لحفظ اللسان ، ويحاسبون أنفسهم فى الدنيا ، وهكذا ينبغى للمسلم أن يحاسب نفسه فى الدنسا قبل أن يحاسب فى الآخرة ، لأن حساب الدنيا أيسر من حساب الآخرة ، وحفظ اللسان فى لدنيا أيسر من ندامة الآخرة .

انظر : تنبيه الغافلين (ص/ ١٦٧) .

(٣) المقصود العزلة عن أهل الشر ، وأهل الغفلة عن ذكر الله تعالى .

* كان أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ يقول : نعم صومعة الرجل بيته يكف فيها بصره سانه ، وإياكم والسوق ، فإنها تلهى وتلغى .

هد لأحمد (ص/ ١٦٨) .

وقال بشر الحافى رحمه الله : من عامل الله بالصدق ، استوحش من الناس ، انظر : ق (٣/ ١٩٥) .

المقصود كذلك الاحتراس من أهل الخداع ، والمكر ، والخيانة .

(٤) البكاء من خشية الله ، ، والخوف من سابق الذنوب كان حال السلف الصالح .

* فهذا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ كان فى وجهه خطان أسودان من البكاء =

القبلة برهم وفاجرهم (١) .

= الزهد لأحمد (ص/١٥٠) .

* وقال أبو الهيثم عبيد : أتيت الحسن سنة ما أخطأنى فى يوم أن آتيه ، فما مر علىَّ يوم أخطأنى أن أرى دموعه ، وهى تحادر على لحيته . الزهد لأحمد (ص/٣٣٤) .

* وقال رجل لابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أوصنى . فقال : ابك على خطيئتك ، وكف لسانك ، وليسعك بيتك .

ابن المبارك (٤٢) فى الزهد ، وهناد (٤٦١) فى الزهد ، والطبرانى (١٠٥/٩) فى الكبير .

وكان فى حكمة عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام : ـ طوبى لمن خزن لسانه ، ووسعه بيته ، وبكى على خطيئته .

الزهد لابن المبارك (٤١) ، وهناد (٤٦٢) ، وأحمد (ص/٧٢) فى الزهد .

ومن كلام أبى سليمان الدارانى رحمه الله : ـ لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على لذة ما فاته من الطاعة فيما مضى ، كان ينبغى له أن يبكيه حتى يموت . صفة الصفوة (٢٢٨/٤) .

(١) على المرء أن يكثر من نصيحة الخلق عملاً بهدى سيد الخلق ﷺ :« الدين النصيحة » قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله ، ولرسوله ولأئمة المسلمين ، ولعامتهم » حديث صحيح . أخرجه البخارى (٢٢/١) تعليقاً ، والترمذى (١٩٩٠) ، والنسائى (١٥٧/٧) .

والنصيحة : كلمة جامعة يعبر بها عن جملة هى إرادة الخير .

النصيحة لله : الإيمان به ، وإخلاص النية فى عبادته ، والشكر له .

النصيحة لرسول الله ﷺ : التصديق بنبوته ، وقبول سنته ، والانقياد له ، وتوقيره .

النصيحة للأئمة : بذل الطاعة لهم فى المعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وتذكيرهم عند الغفلة .

النصيحة للعامة : تعليمهم دينهم ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وترك غشيهم .

لذلك كان جرير بن عبد الله البجلى ـ رضى الله عنه ـ يقول : « بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم » أخرجه البخارى (٩٤/٣) ، ومسلم (٣٩/٤) ، والترمذى (١٩٩١) .

١٠٤ ـ ولا تخف فى الله لومة لائم تأتيك المعونة من الله إن شاء الله .

١٠٥ ـ واطلب الجار ، ثم الدار ، والرفيق ، ثم السفر .

١٠٦ ـ واحذر صحبة الحسود ، فإنه مضاد لله فى قضائه ، ولا تصحب مغتاباً (١) ، ولا نماماً ، ولا بهاتاً ، ولا كذاباً (٢) .

فاترك صحبة هؤلاء كلهم ، فإنهم شين فى الدنيا ، وعذاب فى الآخرة ، ولا تصحب إلا مؤمناً صادقاً (٣) .

---

(١) فإنه كما اغتاب غيرك سوف يغتابك .

(٢) صحبة الكذاب بمنزلة السراب ، فإنه بكذبه يبعد عن المرء القريب ، ويقرب منه البعيد .

(٣) وذلك لوصية الرسول ﷺ لمن يريد صحبة غيره ، قال : « **لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقى** » حديث حسن . أخرجه أحمد (٣/٣٨) ، وأبو داود (٤٨٣٢) ، والترمذى (٢٥٠٦) ، وابن حبان (٢٠٤٩) ، والحاكم (٤/ ١٢٨) .

أى عود نفسك صحبة الأخيار ، والتباعد عن صحبة الأشرار .

* قيل المراد منه النهى عن مصاحبة الكفار و المنافقين ، لأن مصاحبتهم مضرة فى الدين ، فالمراد بالمؤمن جنس المؤمنين ، أو المراد المؤمن الكامل فى إيمانه .

* قال أبو تراب النخشبى : صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار .

* وقيل : صحبة الأخيار تورث الخير ، وصحبة الأشرار تورث الشر ، كالريح إذا مرت على النتن حملت نتناً ، وإذا مرت على الطيب حملت طيباً .

* وقال الشافعى رحمه الله : ليس أحد إلا وله محب ، ومبغض ، فإذن لابد من ذلك ، فليكن المرجع إلى أهل طاعة الله .

وصحبة من لا يخاف الله لا يؤمن غائلتها لتغيره بتغير الأعراض ، قال تعالى : ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** ﴾ الكهف : ٢٨ .

والطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدرى .

انظر : تحفة الأحوذى (٧/٧٦) للمباركفورى ، وعيوب النفس (ص/٤٣) للسلمى ، فيض القدير (٦/ ٤٠٥) للمناوى .

١٠٧ ـ والحذر الحذر من أهل زمانك (١) ، ثم الحذر من نفسك ، فإنها عدو خفي ، واحذر من إبليس وأعوانه .

١٠٨ ـ واحذر إذا عزمت على فعل طاعة أن تفتر عنها (٢) ، واستعن بالله ، فإنه ليس من عابدٍ إلا وله فترة ، إما إلى سنّةٍ ، أو إلى بدعةٍ .

أعاذنا الله وإياك من البدع ، ما ظهر منها ، وما بطن .

☆☆☆☆

---

(١) هذا الحذر كان في زمان قد مضى من قرون ، حيث القرن الثالث الهجري ، ومن قبله قال ابن عباس : ذهب الناس ، وبقي النسناس . قيل : وما النسناس ؟

قال : الذين يشبهون الناس ، وليس بالناس .

انظر : حلية الأولياء (١/٣٢٨) .

وقال الحسن البصري : ذهبت المعارف ، وبقيت المناكير ، ومن بقي من المسلمين فهو المغموم . انظر : الزهد لأحمد (ص/ ٣١٦) ، الحلية (٢/١٣٢) .

فماذا يقولون لوعاشوا إلى زماننا ؟ ! والله المستعان .

(٢) الكسل والتواني .

* يقول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : تزوج التواني بالكسل فولد بينهما الفقر .

* وقال مالك بن دينار : ما من أعمال البر شيء إلا ودونه عقبة ، فإن صبر الإنسان عليها أفضت به إلى روح ، وإن جزع رجع .

انظر : الزهد لأحمد (٢/٣١٠) ، والحلية (٢/٣٧١) .

خاتمة

فهذا كتاب إليك ، وإلى من قرأه ، وعمل به ، ودعا لمن وضعه ، فلا خير فى قوم ، لا يكونون ناصحين .

فلا يكتم أحد هذا الكتاب ، فإنه نصيحة ، قل من يعمل به ، ويعرفه .

من الله علينا ، وعليك بمعرفته ، والعمل بما يحبه ويرضاه ، فاجعل ياأخى هذا الكتاب نصب عينيك فى أحوالك كلها ، فلم أترك فيه شيئاً من النصيحة إلا وقد بذلته .

والسلام عليك ورحمة الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليماً .

☆☆☆☆

الفهرس العام

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ١٧٦٢ / ٩٣
I.S.B.N
977 - 272 - 065 - 5

صدر حديثاً

يا ولدي

هؤلاء هن زوجات النبي ﷺ

أم المؤمنين

زينب بنت جحش رضي الله عنها

بقلم د. عاطف الماضية

مراجعة وتحقيق / قسم التحقيق بالدار

دار الصحابة للتراث بطنطا
للنشر والتوزيع والتحقيق
شارع المديرية ت: ٣٢١٥٨٧ ص. ب: ٤٧٧ .